جامعة جنوب الوادي

قسم التاريخ

تاريخ أوروبا الحديث

الفرقة الثانية- عام جغرافيا

أستاذ المقرر

د/آية عبد الوارث سليم

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر – كلية الآداب

جامعة جنوب الوادي

2024 -2023

قائمة المحتويات

أولًا الموضوعات	الصفحة
الفصل الأول: النهضة في أوروبا - سمات أوروبا في العصور الوسطى - عصر النهضة الأوروبية. - حركة الكشوف الجغرافية. - حركة الإصلاح الديني. الفصل الثاني:الثورة الفرنسية. - ظروف قيام الثورة. - قيام الثورة. - نتائج الثورة الفصل الثالث: أوروبا والتحالفات العسكرية. - بسمارك ونظام التحالفات. - الموقف الدولي في أوروبا بعد حرب السبعين. - المسألة الشرقية. التحالفات الأوروبية ومعاهدات الضمان (١٨٧٩ – ١٨٩٠) . التحالفات الدولية بعد سقوط بسمارك. الفصل الرابع: الأزمات الدولية التي أدت إلى قيام الحرب العالمية الأولى 1914- 1918م. - أزمة ضم البوسنة والهرسك. - أزمة أغادير. - الحروب البلقانية. - مصرع ولي عهد النمسا - الدول المشاركة في الحرب العالمية الأولى. **ثانيا: الأشكال والصور** **ثالثًا: الخرائط.** **رابعًا: المراجع** **خامسًا: روابط الفيديو** **https://www.youtube.com/watch?v=OgIN5x5x4Ow** **https://www.youtube.com/watch?v=tf-3HFY5n5A**	

	https://www.youtube.com/watch?v=pbuWDihmVmI

الفصل الأول

النهضة في أوروبا

أولًا:سمات أوروبا في العصور الوسطى

ثانيًا: عصر النهضة الأوروبية

ثالثًا: حركة الكشوف الجغرافية

رابعًا: حركة الإصلاح الديني

أولًا: سمات أوربا في العصور الوسطى

اتسمت العصور الوسطى الأوروبية بعدة سمات قيدت حريتها ومنعتها من التقدم واالزدهار تمثلت هذه السمات في مثلث مثلت أحد أضالعه السلطة الدينية، ومثل الضلع الثاني النظام االجتماعي السائد في أوربا آنذاك أال وهو اإلقطاع،أما الضلع الثالث فتمثل في التخلف العلمي الناتج عن تحالف الضلعين السابقين اإلقطاع والكنيسة للتحكم في المجتمع وتقسيم خيراته فيما بينهما.

(أ) تسلط الكنيسة

ساد أوروبا في العصور الوسطى تسلط من جانب الكنيسة في المجتمع والسيطرة عليه وترهيب الخارجين عن تعاليم الكنيسة بعذاب اهلل، وانتشرت عبادة األيقونات متمثلة في صور القديسين من العصور السابقة، وتصدت الكنيسة الأفكار العلمية الجديدة الوافدة من العالم اإلسالمي التي تعطي للعقل حرية التفكير واإلبداع، فحكمت على العلماء بالحرمان وأهدرت دم بعضهم وأحرقت كتب البعض آلخر، ومن المعروف أن الدين المسيحي الهوت يحكم العالقة بين اإلنسان وربه، وهو دين تعبدي ارتكز في شرائعه الدنيوية على التعاليم الواردة في العهد القديم، فحادت الكنيسة عن طريقها عندما تحكمت بغير علم في أمور العلم والدنيا، لذا تبلورت حركة علمانية في أواخر العصور الوسطى للتخلص من ربقة الكنيسة بشكل كامل والتحاكم إلى سلطان العقل والعلم فقط

(ب) القطاع

اعتمدت أوربا في العصور الوسطى – شأنها في ذلك شأن أغلب دول العالم آنذاك – على الزراعة والرعي مع قليل من التجارة، ومثل هذا المجتمع إذا تركزت ملكية األلرض في يد مجموعة صغيرة من المجتمع يسوده نظام اجتماعي اقتصادي إقطاعي يقوم على تركز رأس المال في يد طبقة صغيرة هم السادة ومعظم السكان من العبيد يعملون لدى السادة، ومثل هذا المجتمع بمكوناته تلك ال يمكن أن يتغير، فال السادة يرضون بتغيير هذا الوضع والعبيد لديهم القدرة على التغيير.

(ج) التخلف العلمي

العلم وليد الحرية وبيئة القهر والكبت والعبودية ال يمكن أن تكون بيئة صالحة لظهور العلم وتطوره، فالسادة يعيشون في رغد من العيش ال يهتمون بعلم وال علماء، والعبيد ال هم لهم إال البحث عن لقمة العيش، فهم يعملون لقاء لقمة العيش، فإذا أضفنا إلى ذلك سلطان الكنيسة غير الراغبة في التطور والعلم أدركنا حجم المأساة، السيما أن سلطان العلماء سيقلل من سلطان الكنيسة ونفوذها على العامة.

ثانيًا: عصر النهضة

شهدت طفرة فى مختلف جوانب الحياة، أخرجت أوروبا من الظلمات إلى النور، بدأت بالنشاط التجارى عبر البحر المتوسط، وجهود الفاتحين المسلمين في الأندلس وجنوب إيطاليا، فتنامى النشاط التجارى الأوروبي أدى إلى تحقيق مكاسب اقتصادية لدى فئة من السكان أصبحت تملك لقمة عيشها ومن ثم أصبحت تملك قرارها وكلمتها، ومثل هذه الفئة هى القادرة على التغيير، كما لجأ بعض من أبناء أوروبا إلى الأندلس والجزر التى سيطر عليها المسلمون فى البحر المتوسط لينهلوا من علم المسلمين. كل ذلك أدى إلى حركة نهضوية كبرى فى أوروبا زلزلت عرش المجتمع الإقطاعى والكنسي فى أوروبا وأذن بنقل القارة البيضاء إلى عصور النور.

عرف عصر النهضة الأوروبية أو القرن السادس عشر، وهو العصر الذى يبتدئ برحلة كريستوفر كولومب الأولى فى العالم الجديد عام 1492م وحروب إيطاليا 1494م، وينتهى بين وفاة إليزابيث ملكة انجلترا 1603م وموت هنري الرابع ملك فرنسا. ويعد القرن السادس عشر أو عصر النهضة الأوروبية حافل بالقوى الثورية الجديدة التي تغلبت على القوى التقليدية المحافظة. وفى الحقيقة إن تاريخ القرن السادس عشر حداثة وتجديدا فى أوروبا، أو على الأقل فى أوروبا الغربية. كما يقصد بعصر النهضة عصر إحياء العلوم والآداب في أوروبا Renaissance ،بعد أن ظهرت الطبقة البرجوازية وخفت قبضة الكنيسة على العلماء، وتوفر لهذه النهضة مجموعة من العلماء أخلصوا في سبيلها، وقد تركزت النهضة الاوروبية في إيطاليا قبل غيرها من الدول االأوربية، ثم انتشرت في باقي القارة البيضاء، وفيما يلي نتعرض ألسباب هذه النهضة ومظاهرها وعلمائها.

ولقد امتاز رواد هذه الحركة بأنهم أعطوها كل عناية واهتمام ولم يدخروا شيئًا من طاقتهم، فقد درسوا كل ما وقع تحت أيديهم من الكتب اليونانية والرومانية في الجوانب العلمية والأدبية ودرسوا الآثار الفنية الباقية. وقد امتازت هذه الحركة أيضًا بأن هؤلاء العلماء لم يكن دورهم هو مجرد نقل بقايا هذه الحضارة القديمة، فقد عدلوا ما رأوا تعديله وأضافوا ما يجب إضافته، والأكثر من ذلك هو أنهم أضفوا شخصيتهم وآراءهم على هذه العلوم بمختلف مجالاتها، ومن ثم أبدعوا فأحدثوا نهضة جديدة.

ومن ثم عرفت هذه الحركة وسميت" بالإحياء" حيث كان روادها يعتبرون الفترة التى سبقتها بفترة سكون وجمود ويجب انتشال الإنسان وإحياؤه منها، وكانوا يؤمنون بأن الحضارة الحقة قد اندثرت بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية العريقة، وقد عادت إلى الوجود مرة أخرى على أيديهم، والواقع أنه توافر لهذه الحركة مجموعة من العوامل ساعدت على بعثها، ومن هذه العوامل:

(أ): **الصلات الثقافية بين أوروبا الغربية ومراكز الحضارة الإسلامية** وهي: بلاد الشرق الأدنى: وهي التي تعرضت للحملات الصليبية والتي استمرت لقرابة قرنين من الزمان وكان ذلك خلال فترة العصور الوسطى المتأخرة، وفي هذه الفترة كانت أوروبا تسير بخطى بطيئة في ظلمات الجهل، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الإسلامية تسير بخطى ثابتة في طريق تقدم العلوم والفنون والرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ وما إلى ذلك من جوانب العلوم المختلفة.

وهنا يجب أن تذكر أن الفضل في حفظ بقايا الحضارة الرومانية واليونانية إنما هو قسمة بين ثلاثة أطراف وهم :

(1) الكنيسة الكاثوليكية في الغرب .

(٢) العلماء المسلمون، حيث نشطت حركة الترجمة عن العلوم في العصر الأول للخلافة العباسية حتى قيل : إن الخليفة العباسي المأمون كان يقدر ما يترجم لصاحبه بوزنه ذهبا. ومن العلوم التي حظيت بعناية العرب في ذلك الوقت علم الفلك، وظهرت مجموعات من العرب اعتمدوا على الفلسفة في مناقشاتهم ومجادلاتهم، ومن ذلك جماعة المعتزلة .

(3) أما الطرف الثالث الذي يرجع إليه الفضل في حفظ بقايا الحضارة اليونانية والرومانية هي بيزنطة والقسطنطينية بما نقلوه إليها من هذه الحضارة .

(ب) شبه جزيرة أيبريا: وقد حكم العرب شبه جزيرة أيبريا ما يقرب من ثمانية قرون أصبحت خلالها قلعة علم ومنارة للحضارة، فأصبحت مقرا للمدارس والمعاهد ودور العلم حتى أصبحت مقصد طالب العلم وحينذاك كانت قد ازدهرت بها دراسة الفلسفة والطب والرياضيات بأنواعها والأدب والشعر .

(ج) صقلية: وقد حكمها العرب مدة تزيد عن قرنين ونصف ونقلوا إليها جوانب الحضارة الإسلامية حتى أصبحت منارة العلم وإشعاع الضياء لأوروبا، وقصدها طلاب العلم بما في ذلك الأوروبيون، وبعد أن سقطت صقلية في يد النورمان لم يحاولوا إزالة الصبغة العربية التي صبغ بها العرب صقلية وإنما حافظوا عليها وعملوا على تقدمها حتى استنفدوا أغراضهم منها واصطبغت بالحضارة الغربية –

(د) شخصية أعلام عصر النهضة: كانوا شخصيات متميزة من ذلك الطراز الخلاق المبدع لا المقلد، حيث إننا نجدهم يطلقون لأنفسهم العنان في قراءة العلوم المختلفة ووضع التعديلات المناسبة دون قيد أو شرط مما حررهم من قيود العصور الوسطى . فكان الإنسانيون هم العلماء الذين أوقفوا كل ما يملكون من مال وجهد في سبيل اردهار هذه الحركة، لذلك كانوا يبحثون عن القديم بكل شغف وشوق دون أن ينظروا إلى المقابل المادي من وراء ذلك، وبعد أن يجدوا ما يريدون يصبغونه بطابعهم الخاص .

(ه) انتقال عدد كبير من العلماء الإغريق إلى إيطاليا: ولا يجب أن ننسب هذا إلى محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية 1453م، وهناك من الأدلة الكثير مما ينهض دليلا على خطأ هذا الاعتقاد، ومن ذلك العالم الإغريقي مانويل گريز لوراس MANUEL CHRISOLORAS والذي حضر من القسطنطينية وحاضر في جامعات فلورنسا وميلان وكان ذلك بين عامي ١٣٩٧ - 1400، وكذلك العالم بساريون BESSARION الذي نجح في جمع حوالي 600 وثيقة ودخل إيطاليا دخول المظفر في الحرب .

(و) **اختراع الطباعة**: وقد كانت أحد عوامل إنجاح حركة الإنسانيين هو اختراع الطباعة، حيث إن طباعة الكتب أصبحت أسهل من ذي قبل، وهذا أدى إلى غزارة الإنتاج العلمي المطبوع

وبأسعار أقل من ذي قبل، وهذا ما سهل على الإنسانيين تأليف الكتب وطباعتها وسرعة انتشارها فأفاد منها أكبر عدد لم يسبق له مثيل .

ثالثًا: خصائص عصر النهضة

لكل عصر من العصور ما يميزه من الخصائص، وعصر النهضة كذلك له من الخصائص ما يميزه دون غيره من العصور، وهذه الخصائص هي :

الناحية الثقافية: من العلامات الواضحة في عصر النهضة من ظهور تيارات ونظريات فكرية جديدة مثل : روح الشك والنقد والبحث وراء الحقيقة علاوة على إحياء الدراسات اللاتينية والإغريقية، ولقد نشأت النهضة الثقافية بعيدا عن الجامعات، ذلك أن هذه الجامعات كانت تهتم بدراسة الطب والقانون، مع احتمال عدم اهتمامها بالدراسات الإنسانية الأخرى، مما يجعل الدراسة قاصرة على ماسبق الإشارة إليه ، بالإضافة إلى اللاهوت والقانون الكنسي والفلسفة .

ولقد عمل العلماء على استرداد الحقائق وما يرغبون فيه من مصادره الأساسية، لهذا فقد لجأوا إلى المخطوطات، وهذه المخطوطات إما مخطوطات إغريقية أو لاتينية، وكانت المخطوطات اللاتينية كثيرة في شبه الجزيرة الإيطالية أما المخطوطات الإغريقية فقد سبق وأن أشرنا إلى أنها كانت متوافرة في القسطنطينية والكنائس الكاثوليكية .

- **الناحية السياسية**: من الأشياء الطبيعية هو تأثر الحياة السياسية بمظاهر عصر النهضة، حيث إن العقول بسبب هذه الحركة تنورت إلى ماهو أسمى من النظام المتبقى عن العصور الوسطى، ذلك النظام الذي ساد بكل قوة قرونا عديدة ذاب فيه الفرد في المجتمع، فالفرد في العصور الوسطى وصل إلى أسفل الدرجات إذ كان قنا (عبدا) للأمير أو الكونت مثلا، ولكن في أواخر العصور الوسطى أخذ الفرد يتحرر من العبودية تدريجيا بسبب تطورات جذرية، منها اجتياح الطاعون الأسود لأوروبا فقضى على نسبة عالية جدا من السكان، فأصبح الأمير (مثلا) في حاجة إلى اليد العاملة التي تستطيع أن تعمل عنده أو عند غيره، وأخذت قدرات الأمراء والكونتات تضعف، أما قدرات الملك على التحكم في الدولة فقد نمت على نحو ما حدث في إنجلترا وفرنسا من ظهور أسرات قوية حاكمة استطاعت أن تفرض سلطتها المركزية إلى حد كبير جدا، واستطاعت أن تجعل ولاء أفراد الشعب للملكية وللوطن وليس لغيرهما .

ولذا نجد أن عددا من الدول نجحت في إقامة دولة قومية حديثة ومنها إنجلترا وفرنسا وأسبانيا، وقد دعم عصر النهضة هذا الاتجاه واستغلت هذه الدولة الطبقة الجديدة (البرجوازية) التي نشأت معها، وهي تلك الطبقة التي تمت مع التجارة في تدعيم حكومات هذه الأمم. ومما ساعد هذه الدولة على ذلك تصدع الإمبراطورية والكنيسة اللتين استمرتا طوال العصور الوسطى تتلاعبان بخيوط الحياة في أوروبا حتى ضعفنا وأفسحا المجال لظهور الدول القومية .

فقد اندثرت بعض النظريات السياسية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، ومن ذلك النظرية القائلة بأن الكنيسة لها الهيمنة على الحياة الروحية الدينية، في حين يحكم الإمبراطور في الأرض بتفويض من الله، وليس لأي شخص أن يحاسب الإمبراطور حيث إنه يستمد سلطاته من الله، وظهرت نظريات جديدة تناسب العصر، ومنها النظرية التي تؤمن بأن للملك الحق في

استخدام كافة الوسائل التي يراها مناسبة لنمو ورقى الأمة، وكذلك النظرية الأخرى القاتلة بأن الحركة إنما أنشئت لأهداف واضحة وهي تحقيق مصلحة المحكومين .

الناحية الاقتصادية: أدى عصر النهضة الزاهر إلى آثار اقتصادية كانت أساس السياسية العالمية السائدة في العالم بعد ذلك، إذ نشطت التجارة العالمية بالمنتجات الأوروبية، وذلك في أعقاب الكشوف الجغرافية. وقد مهدت هذه الخطوة إلى انتشار التجارة الأوروبية في أنحاء العالم وهو ما أدى فيما بعد إلى الاستعمار.

وتغيرت النظريات الاقتصادية، فقد كان الاقتصاد حتى بداية هذه الفترة هو اقتصـاد قائم على الاكتفاء الزراعي فقط، أما فيما بعد فقد ظهر اقتصاد زراعي تجاري متداخل والذي استمر في الثلاثة قرون المتتالية فيما بعد وكان نواة الثورة الصناعية الأوروبية.

4 ـ الآثار وعلم التاريخ: كانت الآثار الرومانية التي تذخر بها إيطاليا عامة وفرنسا خاصة تلك الآثار التي طالما بقيت باعثا للعمل والإنتاج العلمي فيما بعد، وكانت هذه الآثار في العصور الوسطى تتعرض للعبث والسرقة وخاصة من النبلاء الذين كانوا يودون لو وجدت هذه الأشياء بقصورهم الضخمة، أما السواد الأعظم من الشعب كان لايدرك قيمة هذه الآثار، لذلك فإنه ومع بداية عصر النهضة بدأ فنانو هذا العصر في الاهتمام بهذه الآثار والتنقيب عنها والمحافظة على ما بقى من آثار الحضارة القديمة

وكما تعرضت العلوم المختلفة إلى الإحياء والتطوير فإن التاريخ كان من العلوم التي كان لها نصيب من الاهتمام، حيث تطورت مناهج البحث التاريخي وظهرت المدارس النقدية، وأهم الأبحاث التي ظهرت في تلك الحقبة هو بحث المؤرخ الإيطالي لورونز فالا عن هبة قسطنطين، تلك الوثيقة التي تعود إلى القرن الرابع، وقد أثبت هذا المؤرخ الإيطالي بما لا يدع مجالا للشك بأن هذه الوثيقة قد زيفت في الكنيسة وتحت علم وإشراف البابا للاستناد عليها في الصراع ضد الأباطرة الغربيين ، وكذلك فقد تكونت مدرسة نقد تاريخي في فلورنسا. تلك الوثيقة التي تدعى بأن الإمبراطور قسطنطين بعدما أعلى مسيحيته لجا إلى السبايا نادما عما فعله من أخطاء باكيا وماسكا بلجام حمر البابا، واستمر هكلا حتى أتى الكيـة وأنزل البابا من على دايته والبس البابا التاج الإمبراطوري وفي أن يترك له حكم روما ويرحل إلى مدينته.

د ـ اللغات الحديثة من الحسنات التي لا تزال باقية العصر النهضة حتى وقتنا هذا هي ظهور اللغات المحلية وهي اللغة السائدة للعلم والكتابة، ومع بداية العصر الحديث . فنشأت فئات من علماء وأدباء كل إقليم وباستخدام لهجاتهم المحلية كلغة قومية لهم، ومن هنا نشأت في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا لغات تعود في أصلها إلى الأصل اللاتيني، وعمل علماء هذه البلاد على الارتقاء بهذه اللغة، ومن ثم فقد أصبحت هذه اللغات مظهرا من مظاهر القومية، ونشأت فئة من العلماء والأدباء عكفوا على التأليف في مجال دراستهم بلغتهم المحلية الجديدة ومنهم جفري تشوسر Geoffey chaucer حيث كتب الصص كانتربرى» باللغة الإنجليزية الحديثة وكذلك دانتي Danty حيث كتب «الكوميديا الإلهية باللغة الإيطالية الجديدة ومونتيني الفرنسي Montagne والذي كتب رسائله الفلسفية في الأخلاق والفلسفة .

الـفـنـون الجميلة: من الأشياء التي لا يمكن أن تكون غريبة على المتصفح لعصر النهضة هو التقدم في الفنون الجميلة، ذلك أن الفنون الجميلة ما هي إلا سلسلة متصلة الحلقات منذ الحضارة القديمة الرومانية، وهذا ليس بغريب على رجال هذا العصر، فهذه القصور والأبراج والتماثيل شاخصة أمامهم تحثهم على مواصلة هذا العطاء، ولكن الملاحظة الواضحة في هذه الفترة أن الفنانين لم يقوموا بتحت هذه التماثيل وغيرها بحث من الحاكم أو الإمبراطور ولكنهم كانوا يقومون بهذه الأعمال الجميلة بفضل ابتكاراتهم الفنية الجديدة، ولهذا فإنهم لم يدخروا إبداعا فنيا إلا وأظهروا في أعمالهم النابضة بالحياة، لذا فإن الفنانين في الوقت الحاضر يدينون لهؤلاء الفنانين أبناء عصر النهضة بأنهم أصحاب الفضل الأعظم في الفنون الجميلة الحديثة والمعاصرة، ومن هؤلاء الفنانيين الذين ظهروا في فترة عصر النهضة ليوناردو دافنشى Leonardodevinci وكذلك مايكل أنجلو Michael Angel ورفائيل Rafael .

أما العمارة فإنها عادت إلى الحياة وبشكل جديد فإنها تأثرت بحركة إحياء العلوم والفنون ولم تكن مجرد تقليد للقديم أو محاكاة له، ومن هنا أدخلت العناصر النباتية والهندسية إلى فن العمارة، وكانت فلورنا هي أول المدن التي شهدت هذا التطور، ثم انتقلت منها إلى باقي المدن الإيطالية، وممن نبغوا في هذا المجال برونسكو Brunellesco والذي وضع لمسة جمالية أخيرة إلى كاتدرائية فلورنسا ألا وهي القبة الجميلة التي وضع فيها خلاصة إبداعاته الفنية الجميلة.

على أن هناك شيئا يجب وضعه في الاعتبار وهو أن الفن في هذا العصر أخذ شكلا لم يكن مألوفا ومعروفا من قبل على الرغم من وجود العامل الأساسي الداعي لهذا الشكل، فنحن نجد أن الفنون في هذا العصر قد أصبحت ذات صفة دينية خادمة الاتجاه الديني في تمثيل بعض الشخصيات المسيحية الرومانية حتى لتذخر الكنائس والكاتدرائيات في إيطاليا على وجه الخصوص بالصور الناطقة والتماثيل المعبرة عن الحياة لشخصية السيد المسيح والسيدة مريم وغير هؤلاء من الشخصيات الدينية من القديسين والأدباء الذين تمتلئ بهم الكتب المسيحية في هذه الفترة .

ـ **التمتع بملذات الحياة**: من الآثار السيئة التي لا يمكن إغفالها لعصر النهضة تلك السلبيات التي بدأت تظهر كنتيجة طبيعية لهذا التقدم والتطور في شكل الحياة، حقيقة إن النساء كن يخرجن من قبل ولكن الآن وبعد ظهور هذه النهضة انحلت الأخلاق وتداعت القيم وسقطت المبادئ، فها نحن نرى ونقرأ عن العلاقات غير المشروعة بين الرجال والنساء وكأنها الحاضر، ففي تلك الفترة لم يهتم الرجال والنساء على حد سواء بشيء إلا إرضاء غرائزهم بغض النظر عن نتائج هذا، ولكن ليس معنى هذا أن أناس هذا العصر لم يكونوا أسرا بل إنهم كانوا يكونونها ولكن ليس للغرض الحقيقي من إقامة هذه الأسرة ولكن لأنهم وجدوا أنها عادة اجتماعية تعودوا عليها، ولابد منها كشكل نظري للحياة الاجتماعية يخفون وراءها نتاج ملذاتهم

وإذا كنا نعلم أن البابا كان يعيش الوسطى في قصر كما لو كان ملكا متوجا فإنه ومن السهل علينا أن نعرف الصورة التي أصبح عليها في عصر النهضة هذا، وخاصة بعد أن انحلت القيم على الشكل الذي أوضحناه، فبالإضافة إلى الملذات والمحرمات التي انغمس فيها كبار رجال الدين نجدهم يبحثون عن الأموال، فلكل شيء ثمنه في هذا العد ومن ثم كانوا يتبعون كل الوسائل

الشريفة وغير الشريفة، المشروعة وغير المشروعة لجمع الأموال، فإلى جانب جمع التبرعات والهبات والزكاة كانوا يبيعون صكوك الغفران ويشتركون في أعمال السلب والنهب، والأكثر من ذلك هو الاعتداء على النساء كما لو كانوا أمراء في العصور الوسطى، ومن ثم ظهر تطور طبيعي ومتوقع لكل هذه السلبيات فيما بعد في العصر الذي اصطلح على تسميته بالإصلاح الديني.

ثالثًا: النهضة فى ايطاليا

وقد تمثلت مظاهر النهضة في إيطاليا في الآتي:

(١) حركة إحياء الدراسات اليونانية واللاتينية أو الحركة الإنسانية:

تطلق الحركة الإنسانية Humanism على حركة إحياء الدراسات الإغريقية واللاتينية وما تفرع عنها من حركات أخرى. ويعتبر الدافع على إحياء الدراسات الكلاسيكية (القديمة) هو التغيير الكبير الذي طرأ على الروح الأوروبية كنتيجة لنمو علاقات إنتاجية جديدة، وما ترتب على ذلك من تدهور العلاقات القديمة وتدهور المؤسسات التي تسند هذه العلاقات، وخصوصا الكنيسة.

وكانت الكنيسة ـ كما ذكرنا ـ هي أداة العلاقات الإنتاجية القديمة الفكرية التي تدعمها بالعلم والمبادئ والنظريات. وكانت هذه التعاليم تقوم على احتقار الجسد واحتقار الدنيا ومتاعها ولذاتها، وتحرض الإنسان على أن يقف من الحياة موقفا سلبياً، وأن يعرض عنها . ولما كانت هذه التعاليم لا تتفق، بل وتتعارض مع نظرة الطبقة البورجوازية الجديدة العملية والمادية من الحياة، إذ هي طبقة دائبة النشا تستمد حياتها من نشاطها واجتهادها وحاجتها إلى الاستمتاع، فقد كان من الطبيعي أن تصطدم هذه النظرة الأخيرة بنظرة الكنيسة وتتصارع معها.

وهذا يفسر كيف أن حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية قد بدأت في المدن الايطالية الشمالية وبتشجيع من حكامها الذين أضفوا على المشتغلين بها الدعم المادي والأدبي. وليس معنى ذلك أن حركة إحياء الدراسات اليونانية واللاتينية قد قامت على أيدي الطبقة البورجوازية ذاتها، وإنما تعنى أن وجود هذه الطبقة وتغييرها للعلاقات الإنتاجية القديمة، قد أفسح المجال وهيأ المناخ لنمو هذه الدراسات، وأزال العقبات من وجهها التي كانت كفيلة بإحباطها لو لم تظهر هذه الطبقة الجديدة والعلاقات الإنتاجية التي أتت بها.

الفلسفة الكنسية :

كانت الحياة الفكرية والعلمية في العصر الإقطاعي خاضعة إما للفلسفة الكنسية أو الفلسفة المدرسية، وبالنسبة للفلسفة الكنسية فإن الكنيسة كانت قد انفردت منذ أواخر القرن السابع بالإشراف على التعليم الذي أصبح دينيا بحتا هدفه إعداد الشباب ليصبحوا رجال دين. وقد تمثل إشرافها على التعليم في إشرافها على مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرائيات وفي قيام رجال الدين بالتدريس في غالبية أنواع المدارس الأخرى. وقد وضعت الكنيسة منهج العصور الوسطى التقليدي المعروف باسم منهج «الفنون الحرة السبع» Seven Liberal Arts كان يدرس في المرحلة الثانية من مراحل التعليم، وينقسم هذا المنهج إلى مجموعتين: مجموعة ثلاثية، تضم

النحو والبلاغة والمنطق، ومجموعة رباعية تضم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. وقبل القرن الحادي عشر كان الاهتمام موجها إلى دراسة النحو اللاتيني لإعداد الطالب للدراسات الدينية، وخلال القرن الثاني عشر أصبح «المنطق، هو الدراسة الرئيسية بعد أن أصبحت مسائل ما وراء الطبيعة واللاهوت أهم موضوع العصر - وعندما ازداد الاهتمام بفلسفة أرسطو وعلومه تغير الاتجاه ووجهت العناية إلى دراسة الفلك والحساب والهندسة.

(1) إحياء التراث القديم :

الطور اللاتيني :

وقد اتجـه الاهتمام في المدن الإيطالية في بادئ الأمر إلى التراث الروماني - كما ذكرنا – ولذا عرفت هذه المرحلة الأولى من عصر النهضة بالطور اللاتيني لإحياء التراث القديم، ويمثل فرانشيسكو بترارك Petrarch هذه المرحلة، مـرحلة الانتقال بين العصور الوسطى والنهضة بشكلها المتكامل، إذ يعزى إليه الفضل الأول في تنشيط الدراسات اللاتينية. وقد بالغ البعض في تقدير دور بترارك في إحياء الدراسات اللاتينية. فيصور أحيانا على أنه المنقذ للكتابات اللاتينية من النسيان. على أن الحقيقة أن اللغة اللاتينية، وكما هو معروف، كانت هي لغة الأدب والعلم في العصور الوسطى، ولكن المشكلة كانت تتمثل في أن أصـحـاب التفكير المدرسي من أساتذة العصور الوسطى كانوا منشغلين بالتفكير الفلسفي والديني. ومن ثم فلم يبذلوا أي جهد في التعمق في روح القدماء الذين كانوا يبدون لهم وثنيين ويعيشون في عالم غير مفهوم أو مكروه.

لذلك فإن فضل بترارك يتمثل في أنه اكتشف مـا تحمله كتابات القدماء من إتجاهات إنسانية تفتح لها عقله، واستطاع أن يتذوقها، ذلك أن ماجعل هذه المؤلفات اللاتينية تجد طريقها إلى نفس بترارك، هو أنها كانت بمثابة التعبير الحر لمجتمع المدينة في مواجهته للمشاكل الإنسانية، فمجتمع المدينة في إيطاليا كان يمر في نفس التجارب التي مر بها أسلافه الرومان.

لهذا فإن الأدب اللاتيني القديم الذي كان يقرأ قبل بترارك لا بإعتباره أدبا لذاته، وإنما لما يحتويه من حقائق ومعان، وبالتالي كان تأثيره الأدبي ضئيلا في كتابات العصور اللاتينية ـ قد أصبح منذ ظهور بترارك يلقى ترحيبا، لأنه يشمل فكرة جديدة في الحياة

أكثر انطلاقا وحيوية من أفكار العصور الوسطى، فكرة تفتح مجالا واسعا للمشاعر الإنسانية لتذوق الجمال ولجميع أنواع النشاط الإنساني. وهذا هو السبب في أنه أطلق على آدابـهـا اسم: الآداب الانسانية Litterae Humanae لأنها تدور حـول حـيـاة الإنسان وما يتصل بها، على العكس من ثقافة العصور الوسطى التي انحصر اهتمامها في الروحانيات والعالم الآخر.

وتتضح الروح الإنسانية في كتابات بترارك في وصفه الرقيق لجسد الإنسان على نحو تأباه تقاليد العصور الوسطى، كما تتضح في كلامه عن معشوقته لورا Laura، فهو يعبر عن حبه وعواطفه بصراحة ودون تحرج. ونجد مثالا آخر لتحرر بترارك من روح العصور الوسطى في تفكيره السياسي. فقد شغل بأحوال إيطاليا السياسية وخـلافـاتـهـا الداخلية التي لا تنقطع بين الإمارات، وبالـفـسـاد والفوضى فيها، فدعا إلى تغيير هذه الحالة متأثرا في ذلك بعهد الجمهورية الرومانية القديمة، وطالب بوحدة إيطاليا السياسية، مما تعد دعوة جديدة حتى بالنسبة لعصره

لذلك أطلق على بترارك : «أبو الحركة الإنسانية»، وتوج كشاعر عظيم في الكابتول Capitol في روما عام ١٣٤١م من أجل ملحمته اللاتينية الشهيرة «أفريقية»، وأن لم يقدر له أن يكملها حتى وفاته.

ويعتبر جيوفاني بوكاشيو Boccaccio (١٣١٣ – ١٣٧٥) أنشط تلاميذ بترارك، وقد خالفه في أنه كتب بالإيطالية إلى جانب اللاتينية، وترجع شهرته إلى مجموعة قصصه التي أنهاها عام ١٣٥٨م تحت اسم «ديكاميرون» Decameron على طراز الف ليلة وليلة، وتضم مائة قصة أظهر فيها سخريته من تقاليد وخرافات العصور الوسطى. وتشيع فيها نظرة باسمة للحياة الدنيا، تعتبر نظرة جديدة على العصور الوسطى التي اتصفت بالتزمت واحتقار الحياة الدنيوية.

(ب) جمع المخطوطات Manuscripts :

لم يكن الاهتمام بالدراسات اللاتينية والإغريقية سوى مظهر واحد من مظاهر الحركة الإنسانية، أما المظهر الثاني فيتمثل في جمع المخطوطات القديمة التي غصت بها مكتبات الأديرة والكاتدرائيات. وقد أسهم أمراء الأسرات الحاكمة في المدن الإيطالية في جمع هذه المخطوطات والكتب القديمة النادرة، وأوفدوا العملاء لهذا الغرض في أوروبا والشرق، كما شجع البابوات والكاردينالات هذه الحركة، وأنفقوا أموالا طائلة البحث عن هذه المخطوطات في إيطاليا والإمارات الألمانية وغيرها من أقطار أوروبا.

وكان أمراء إيطاليا وأثرياؤها يتنافسون على جمع المخطوطات، حتى أصبح اقتناء هذه المخطوطات، مظهرا سائدا من مظاهر النهضة في إيطاليا، ولذا كان من الطبيعي أن تنشأ حول المخطوطات تجارة منتشرة. وكانت القسطنطينية بعد سقوطها مركز هذه التجارة حيث كان الإنسانيون يبحثون عنها بهمة لنصف قرن مضى والواقع أن المخطوطات القديمة كانت المصدر الأول في حركة احياء الدراسات القديمة، وكان بترارك يبحث بنفسه عن المخطوطات القديمة وجمع حوالى مائتي مخطوطة، بل وصل به الأمر أن نسخ بيده كتابات شيشرون Cicero (١٠٦ - ٤٣ ق.م)، وكان يحث تلاميذه وأصدقاءه على اقتناء المخطوطات.

وقد استطاع فرانشيسكو فيليلفو Francesco Filelfo (١٣٩٨ - ١٤٨١م) الذي أصبح إنسانيا مبرزا بعد أن درس اليونانية في القسطنطينية، أن يحصل على مكتبة ضخمة من هناك كانت تشمل شعراء اليونان المبرزين، ومؤلفات الدراميين من أتيكا ، كما شملت في النثر: المؤرخين من هيرودوت إلى بوليبيوس Polybius (٢٠٤ - ١٢٢ ق.م)، والكثير من الخطباء، وكل كتابات أرسطو. وفي مستهل القرن الخامس عشر جمعت في دير القديس ماركو مكتبة حوت ثمانمائة مخطوط قديم اشتراها الأمير كوزيمودى ميدتشى - Cosimo de Medici - وأنشئت في أواخر القرن مكتبة عظيمة في الفاتيكان، وكان الامت٥٢٣ ٦٥ نصبا على المخطوطات من اللاتينية، ثم انتقل الاهتمام إلى الخطوطات اليونانية.

(٣) ظهور اللغات الحديثة :

يعتبر نمو اللغات الوطنية واعتداؤها التدريجي على اللغة اللاتينية التي كانت لغة الأدب والعلم. حلقة الاتصال بين عصر النهضة والعصور الحديثة، وهو بالتالي يعد المظهر الثالث

من مظاهر النهضة. فقد عمد بعض الكتاب والأدباء المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم، فنشأت في إيطاليا وفرنسا واسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الاصل اللاتيني، وظهرت في شمال أوروبا لهجات أخرى ترجع إلى أصل تيوتوني. وعمد علماء كل لغة إلى تحت كلمات وعبارات جديدة والارتقاء بمستواها، حتى أصبحت هذه اللغات صالحة لتدوين العلوم والآداب بها، وعاملا مهما طرأ على نشر الأفكار الجديدة التي اتسمت بها النهضة، كما أوجد نمو هذه اللغات الوطنية طائفة من القراء والأدباء في إيطاليا وفي فرنسا وغيرها، فأضحى الأدب ملكا للشعب. وإذا اتخذنا إيطاليا مثلا، فإن لهجة توسكانيا هي التي أصبحت أساس اللغة الايطالية. ويرجع تفوق لهجة توسكانيا إلى أنها كانت بعيدة عن التأثر بلهجات الغزاة البرابرة بحكم موقع توسكانيا في إيطاليا، وظهور شعراء ممتازين توسكانيين قرضوا الشعر باللهجة العامية. وقد كان أول كاتب في إيطاليا يستخدم اللغة الإيطالية الحديثة في التعبير هو أليجييري دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) ,Dante Alighieri ، الذي كتب كتابه المشهور « الكوميديا الالهية» Devina Commedia باللغة الإيطالية، وهو عبارة عن رحلة خيالية إلى العالم الآخر، يؤكد بعض الباحثين أن دانتي تأثر في كتابتها بـ «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعرى من ناحية الفكرة، وإن اختلفت من حيث البناء والتفصيلات والمضمون والأهداف..

وتنقسم الكوميديا إلى ثلاثة أقسام متساوية تقريبا، وهي: الجحيم Infero والمطهر Purgatorio والفردوس Paradiso وكل قسم ينقسم بدوره إلى مجموعة من الأناشيد متقاربة الطول. ويصور دانتي في الجحيم عالم الخطيئة والإثم والعذاب، وهو يقسم تسع درجات، ويتصور أنه شاهد في كل درجة عددا من أعاظم رجال الشعر والحرب والفلسفة والسياسة.! أما المطهر، فهو يمثل النصح والتوبة والتطهر والأمل، وهناك فرق بين الجحيم والمطهر، ففي الجحيم يبقى الأثمون فيه أبداء أما في المطهر فيوجد فيه الآثمون بصفة مؤقتة لأنهم تابوا وكفروا عن ذنوبهم قبل موتهم.

أما الفردوس فيمثل عند دانتي الطهارة والصفاء والحرية والنور الإلهي، ويضم أرواح الصالحين الأتقياء، ويصوره دانتي على شكل سماوات عشر ترتقى حتى تصل إلى الذات الإلهية. وقد اتخذ دانتي من الشاعر فرجليوس Virgilius (٧٠ - ١٩ ق.م) الشاعر اللاتيني القديم صاحب الإنيادة Aeneid ، والذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، مرشده في الجحيم والمطهر. أما في الفردوس فاتخذ من بياتريشي Beatrice التي كان يحبها وماتت في الخامسة والعشرين من عمرها وحزن عليها دانتي حزنا شديدا، دليلا ومرشدا.

هذا في إيطاليا، أما في فرنسا فقد كتب مونتانى -de Mon taigne (١٥٣٣ - ١٥٩٢م) باللغة الفرنسية رسائل رائعة في الأخلاق عرفت باسم Essais . وكتب فرانسوا رابليه Rabelais قصته عن مخاطرات بنتجرول وجارجانتوا Pentegruel et Gargantua، ولما كان النثر الفرنسي حين بدأ رابليه كتابته لايزال وليدا، فقد استطاع أن يلعب بالألفاظ ويؤلف منها تراكيب غريبة.

(6) تطور الفكر السياسي:

تمثلت روح العصر البورجوازي العملية أكثر ما تمثلت في التطور الذي طرأ على الفكر السياسي، والذي عبر عنه ماكيافللي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) في

نظرياته أو مبادئه التي تتألف من مجموعة أقواله في كتبه، وخاصة كتابه: «الأمير» - II Prin cipe, فمع أن «ماكيافيللي، قد ولد من طبقة النبلاء القديمة، إلا أنه ولد في فلورنسا حيث كانت الطبقة البورجوازية على درجة كبيرة من القوة.

وقد شهد حكم الراهب الثائر سافونا رولا Savonarola (١٤٥٢ - ١٤٩٨م) الذي كان يرى الأخلاص لإيطاليا إلا عن طريق التمسك بالفضيلة والأخلاق. وكانت مأساة سافونارولا تجربة عملية أمام مكيافيللي استقى منها دروسه السياسية التي شرحها في بعض كتبه، فقد رأى أن مسافينارولا» قد لقي حتفه لأنه كان خياليا متعسفا في إيمانه بالفضيلة التي لا وجود لها بين الناس، ورأى أن فكرة الإحاء الإنساني التي قامت عليها دعوة «سافونارولا» وحملته الدينية، غاية في السخافة، وأن القيود التي تضمنتها تعاليم المسيح لا يمكن التقيد بها إذا كان لابد أن يحكم الناس وأن يسود بينهم نظام فضلا عن ذلك، فقد عاش ماكيافيللى حياته العملية متصلا بالأحداث التي عصفت بقلورنسا، فقد قام ببعثات دبلوماسية إلى روما وفرنسا، كما أوفد إلى بلاد الإمبراطور الألماني مكسميليان في الوقت الذي كانت فلورنسا مهددة بالجيوش الأجنبية من جهة، وبمرتزقة سيزار بورجيا من جهة أخرى، وشاهد أطماع البابوات السياسية، وتحررهم من أخلاقيات البابوية، فكانت هذه الأحوال والظروف والحوادث هي التي ألهمته عندما كتب كتابه المشهور«الأمير»، مستخلصا منها الآراء والقواعد التي وضعها لإرشاد الحكام في حكم الإمارات عموما.

وتتلخص فلسفة ماكيافيللي السياسية في أن الطبيعة الإنسانية تتصف بالشر والفساد في جوهرها، وأن الإنسان ولد خبيثا لا يفعل الخير إلا إذا اضطر إلى ذلك. وبناء على هذه الحقيقة، التي يعتبر ماكيافيللي التسليم بها أول المبادئ السياسية في العلوم السياسية، فإنه لا يمكن الاعتماد على الطبيعة الإنسانية وحدها لإصلاح نفسها، فالشر لايمكن التغلب عليه إلا بكبحه والضغط عليه.

ثانياً: أن القوة هي أساس نجاح الحكام، ومن ثم فإن الالتجاء إلى الحرب من وقت إلى آخر ضرورة للمحافظة على كيان الدولة، لأن السلام الدائم من شأنه أن يؤدي إلى ضعف أبناء الدولة، في حين يؤدى الخوف والخطر إلى اتحادهم وتماسكهم ومن ثم فلابد من تأسيس جيش وطني في حكومة أمير له القدرة على تنظيم وقيادة جنوده، ثم استخدام هؤلاء في الدفاع عن البلاد والحفاظ على وحدتها الوطنية. ثالثاً : أن من يتطلع من الحكام إلى السلطة المطلقة، لابد أن يرحب بالفلسفة التي تقول: «إن فشل الحاكم هو الجريمة التي لا تغتفر،! ولذلك فعليه

أن يكيف اخلاق حسب الظروف، وأن يتحررمن القيود الأخلاقية الصالح العام.

(7) تدهور النهضة في إيطاليا:

على كل حال فإن هذه النهضة العظيمة التي قامت في المدن الإيطالية لم تلبث أن أخذت تخبو منذ نهاية القرن الخامس عشر. ثم انطفأت تماماً في سنة ١٥٢٧م. وهناك عاملان أساسيان أديا إلى أفول النهضة في إيطاليا: ـ العامل الأول : الحروب الإيطالية: الكبرى، التي كان ميدانها إيطاليا، واشتركت فيها الإمارات الإيطالية نفسها، وكان تأثيرها فادحا على النهضة الإيطالية.

ففي عام ١٤٩٤م غزا شارل الثاني ملك فرنسا إيطاليا عبر الالب، وكان ذلك فاتحة الحروب الإيطالية بين الدول الأوروبية فقد طردت أسرة مديتشى من فلورنسا، التي رأينا كيف أسهمت في حركة النهضة، وأخذت تتنازع الحكم أسرتا بيانوني وأوتيماتي Ottimati. كما استولى فردناند ملك أراجونة على نابولي في سنة ١٥٠٤م. وأما ميلان فقد خربت على يد الجيوش الفرنسية والألمانية والسويسرية وقد ظلت روما بمنأى عن التخريب حتى عام ١٥٢٧م، فأصبحت مركز الإشعاع للنهضة الإيطالية، ومحور الحركة الإنسانية. وكان ليو العاشر شديد التحمس للدراسات الكلاسيكية، حتى أصبحت روما في عهده مركزا أوسع وأكبر من فلورنسا في عهد لورنزو مديتشي، وإن كانت أقل منها في عمقها وعبقريتها. وقد تطورت علاقة البابوية بالحركة الإنسانية حتى أصبح الإمتياز في الدراسات الإنسائية سبيلا للوصول إلى مناصب الكنيسة الكبرى على أن نهب روما في مايو ١٥٢٧م على يد جنود الإمبراطور شارل الخامس ملك أسبانيا، وهزيمة البابا وعقده الصلح مع الإمبراطور في كامبرى Cambrai، لم يلبث أن أدى إلى انهيار النهضة الإيطالية انهيارا تاما، فقد نهبت قوات الإمبراطور شارل الخامس كل الكنائس والأديرة، وقطعت رئوس رهبانها وقساوستها، واغتصب - عدد من الراهبات، وتحولت كنيسة القديس بطرس إلى اسطبلات للخيول.

فإنه لما كانت هذه الحركة تحمل معنى التحرر الديني والتحرر من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، وكانت في الوقت نفسه ثمرة من ثمرات الحركة الإنسانية، فقد كان ذلك ما أدى إلى معارضة البابوية للحركة الإنسانية بقوة منذ ظهور حركة الإصلاح الديني في الربع الثاني من القرن السادس عشر، فتواطأت البابوية في عهد كليمنت السابع في سنة ١٥٢٠م مع شارل الخامس ملك أسبانيا على تصفية الحركة الإنسانية في إيطاليا.

على أنه قبل انطفاء شعلة النهضة في إيطاليا، كانت قد انتقلت عبر الألب إلى بقية أنحاء القارة الأوروبية، وعلى الأخص في غربها وشمالها على يد الطلاب الذين كانوا قد حصلوا المعارف الجديدة في المدن الايطالية. ثم عادوا إلى بلادهم لينشروا ما حصلوه على مواطنيهم، فقامت نهضة جديدة في كل بلد أخذت تتخذ لها سماتها وخصائصها المنفردة حسب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية.

ه - النهضة في المانيا :

تميزت النهضة في ألمانيا باتجاهها الديني والعلمي، على العكس من إيطاليا التي اقتصرت الدراسات الإنسانية فيها على الطابع الوثني، وكانت طلائع النهضة في المانيا جماعة من المبتدئين الذين جذبتهم الدراسات القديمة في إيطاليا ونقلوها بمجرد عودتهم إلى ألمانيا. وكان هدف الألمان من دراسة الأدب القديم تهذيب النفوس وتربية النشء وتنمية شعور التقوى.

ويرجع الفضل في إثارة الاهتمام بهذه الدراسات الجديدة في ألمانيا إلى جوهان رويخان Johann Reuchlin (١٤٥٥ - ١٥٢٢م) الذي درس الأدبين اليوناني واللاتيني، ثم انصب اهتمامه على العبرية باعتبارها مفتاحا لدراسة العهد القديم ،وهكذا كان اهتمام رويخلن بالعبرية لخدمة المسيحية.

وفي الواقع أن هذا هو الاتجاه المميز للحركة الإنسانية في مرحلتها الأولى في ألمانيا، فقد أخضع الإنسانيون الدراسات الإنسانية لخدمة الكتاب المقدس، فكان الائتلاف قويا بين الحركة الإنسانية وحركة الإصلاح الديني، فكما أن الدراسات الإنسانية تعتمد على الدراسات القديمة، فكذلك حركة الإصلاح الديني تعتمد على الرجوع إلى المصادر الأولى للمسيحية دون فلسفة العصور الوسطى من مدرسية وغيرها. لذلك اتجهت النهضة في ألمانيا لخدمة الإصلاح الديني واتخذت أشكالها في دراسة الكتاب المقدس كما كتب باليونانية، وفي مهاجمة رجال الدين ومحاربة البدع والخرافات الدينية. وقد تبلور هذا الاتجاه بصورة صارخة فيما بعد في قيام حركة الإصلاح الديني Reformation المعادية للكنيسة الكاثوليكية، والتي انتهت بحروب دينية مدمرة.

رابعًا: النهضة العلمية في إنجلترا

كانت الظروف المحيطة بعصر النهضة في إنجلترا أصعب منها في إيطاليا وفرنسا، ذلك أن إيطاليا لم تقحم نفسها في حروب أوروبية ترهقها وتزيد العبء المالي عليها وعلى ميزانيتها، كذلك فإن فرنسا قد استفادت من حرب المائة عام في أنها اتحدت وكونت حكومة قوية، إلا أن إنجلترا لم تكد تنتهى من حرب المائة عام والتي هزمت فيها حتى دخلت في حرب أهلية، والمنطق يحتم ويقول بأن آثار الحرب الأهلية أكثر فظاعة من آثار حرب المائة عام على إنجلترا، ذلك أن حرب المائة عام كانت تدور على الأراضي الفرنسية، في حين أن حرب الوردتين الأهلية كانت رحاها تدور على أرض إنجليزية بطبيعة الحال فشغلت الأذهان هناك بهذه الحرب ولم يهتموا بما يحدث في إيطاليا من تقدم علمي ،

بدأت النهضة في إنجلترا بعد أن استقر الحكم في يد أسرة التيودور، وقد قامت النهضة على أكتاف أولئك الذين درسوا في إيطاليا ومنهم وليم ليلى Wil liam Lilly- والذي درس في روما ووليم جروسون William Grocyn والذي تعلم في فلورنسا، وأخيرا توماس ليتاكر Thomas Linacre، وقد اهتم هذا المثلث العلمي باليونانية وكانوا في أكسفورد .

أما كمبردج فقد ذخرت بمجموعة من العلماء والأدباء ممن تفخر بهم أية مدينة في منافسة الأخرى، وعلى رأس هؤلاء أرزم والذي والذي كون حلقة من التلاميذ ليتلقوا العلم منه، وكان من بين هؤلاء التلاميذ ريتشارد كروك Richard Croke والذي تتلمذ على يد أرزم ثم قام بالتدريس في مدن ألمانيا، وبعد أن عاد إلى كمبردج تم تعيينه في كرسي أستاذية اللغة اليونانية في الجامعة، ثم خلفه في هذا الكرسي السير توماس سميث Thomas Smith ويعد سميث من أعلام النهضة الإنجليزية، ولقد استمر تشجيع الحكام الإنجليز حتى أنه عند وفاة الملك هنري أصبح هناك خمسة كراسي في جامعة كمبردج وهي اللاهوت، القانون المدنى، الطبيعة ، اللغة العبرية ، اللغة اليونانية . وبالرغم من أن النهضة في إنجلترا كانت أدبية وعلمية إلا أن هناك اتجاها آخر وهو اتجاه الإصلاح الديني، فقد كان ارزم وصديقه كوليت زعماء هذه الحركة، وكان كوليت هو عميد كاتدرائية سان بول، وقد أنشأ كوليست مدرسة سانت بول والتي هاجمت الكنيسة رغبة في إصلاحها، وكانت هذه المدرسة نموذجا يحتذى به في للمدارس المصلحة فيما بعد، ولقد كان هذا الاتجاه هو الاتجاه الذي انفردت به حركة النهضة في انجلترا عنها فى اى دولة اخرى في اوروبا.

خامسًا: النهضة في فرنسا.

وفي فرنسا تسربت النهضة إليها منذ بدء الاتصال بينها وبين إيطاليا عندما نزل " شارل الثامن" إيطاليا في عام 1494م، وبذلك أخذت حركة إحياء الدراسات القديمة تؤتى ثمارها في بناء الحضارة الحديثة في فرنسا، وكان العالم الإيطالي" جيروم أليماندر" الذي وصل باريس عام 1508م أول من نبه الأذهان بفرنسا لدراسات اللغات القديمة، وتزايد بعدها اهتمام ملوك فرنسا بالدراسات الانسانية فنشأت كلية فرنسا عام 1530م في باريس وعينوا لها أساتذة متخصصين في اللغة الإغريقية خاصة. ونشطت بباريس حركة نشر الكتب الإغريقية، وتذخر النهضة في فرنسا بأسماء أعلامها المشورين مثل" جيوم بوديه" وهو من أكبر العلماء المتخصصين في اللغة الإغريقية، وهناك أيضًا " فرانسوا رابليه" وهو أول من خالف البابا وشرح جثة إنسان. ومما يجدر الإشارة إليه هنا أن الإنتاج الذي قام به علماء فرنسا في عصر النهضة كان مزجًا بين القديم الذي يتمثل في المخلفات الإغريقية والرومانية وبين الجديد الذي يتمثل في خصائصهم الذاتية.

وفي شبه جزيرة أيبيريا لاقت حركة النهضة التي انتقلت إليها عن طريق الطلاب الأسبان الذين ارتحلوا إلى إيطاليا معارضة عنيفة من الامبراطور شارل الخامس ملك أسبانيا الكاثوليكي، وذلك خوفًا من بوادر حركة الإصلاح الديني وهو الأمر الذي دفع الإمبراطور شارل إلى عقد اتفاق مع البابا " كلمنت السابع" في بولونيا عام 1530م بهدف تصفية الحركة الانسانية، ونتج عن ذلك أن أصبح للدراسات الإنساسية خصوم في إسبانيا. أما النهضة في روسيا والبلقان الذي كان خاضعًا للدولة العثمانية، فلم يتعد بعض مظاهر فردية كما لم يحدث أي تغيير في المجتمع أو نظم الحكم أو الفنون أو الدين أو الأدب، ومن هذه المظاهر الفردية صورة رسمها أحد فناني مدينة البندقية للسلطان محمد الفاتح ووضعت في قصر السلطان في استانبول وتشييد قصر الكرملين في موسكو وقد اقتبس تصميمه من ميلان.

ثالثًا: حركة الكشوف الجغرافية

كان للطبقة المتوسطة دورها الفعال في إخراج الدولة الوطنية الحديثة إلى الوجود، فهى أمدتها بالأموال لدعم حكوماتها، وتشكيل أجهزتها التنفيذية والتشريعية، من جيش وأمن، وقضاء وكافة أجهزتها الأخرى، تلك الحكومات وخاصة المركزية القوية كانت تسعى إلى إيجاد الموارد الأخرى للإنفاق على متطلباتها المتزايدة، وكان ذلك يأتي عن طريق إما بالتوسع الخارجي، خارج حدود القارة، وهو ما أدى إلى حركة الكشوف الجغرافية. أو التوسعات الداخلية، داخل القارة الأوربية، وهو ما أدى إلى الحروب الإيطالية .

ولما كان من الأشياء التاريخية الثابتة تواجد الاستعمار منذ العصور القديمة أيضا معروف أن المدن اليونانية كانت تمتلك بعض سهول آسيا الصغرى كسهل طروادة وذلك لضمان الغذاء، والإمبراطورية الرومانية القديمة كان لها أملاك واسعة في أوربا وآسيا وأفريقيا، وفي العصور الوسطى تجددت موجة الاستعمار ولكن مع تطور بسيط يتناسب معها، وفيما يختص بأوربا كانت ذات صفة دينية ، وهذا ما ظهر في الحملات الصليبية الموجهة إلى الشرق، أما في العصر الحديث فقد كانت حركة الكشوف الجغرافية والاستعمار ما هي إلا تدعيم للطبقة البرجوازية التي ظهرت في بداية هذا العصر والتي استطاعت إقامة حكومات موحدة مركزية،

ولهذا فقد رغبت هذه الطبقة في السيطرة على المراكز التجارية الهامة وإقامة مستعمرات تعمل لمصلحتها أساسا تدعيم إذن يتضح مما سبق أن الادعاءات القائلة بأن سبب استعمار الأوربيين للبلاد العربية وغيرها من العالم الجديد إنما يرجع إلى تخلف أهالي هذه البلاد وترديهم في عالم الجهل، إنما هو أمر ليس له أساس من الصحة وإنما هو راجع إلى رغبة استعمارية لدى البرتغال وأسبانيا للإمساك بمفاتيح رمخازن الشرق والغرب لجني الثمار المادية للتوسع الإمبريالي . وبدأت هذه الطبقة في إبراز النظام الميركانتلي، بمعنى أن الدولة التي تمتلئ خزائنها بالأموال والمعادن النفيسة هي الدولة القادرة على إقامة جيش قوى وأسطول قوى وإدارة داخلية محكمة ، وهذا بالطبع يتطلب أموالا ضخمة، ولتحقيق هذا الهدف كان لابد من أن يكون الميزان الاقتصادي في صالح الدولة حتى يتسنى لها القيام بهذه الواجبات، وعلى هذا فقد وضعت بعض الأسس والقواعد لتحقيق ذلك وهي :

أولا: فرض مزيد من الضرائب على المنتجات الواردة بهدف تشجيعها على الصناعة الداخلية والحد من الاستيراد .

ثانيا: إعطاء القدر الأكبر من عناية الدولة للتجارة الخارجية، والعمل على أن تكون أرباح الوطن الأم منها أكبر من نسبة الأرباح التي تحتوى عليها التجارة الخارجية .

ثالثا: وضعها ضوابط صارمة على تصدير المعادن النفيسة والحد من تصديرها، بل والعمل على استيرادها بأكبر قدر ممكن وبأقل تكلفة ممكنة . رابعا: الاستغلال المناسب لمناجم المعادن النفيسة في الدولة . خامسا: اتجاه الدولة إلى الاستعمار الخارجي لاحتكار التجارة الخارجية . سادسا: الاهتمام بالمنطقة التي تزخر بمناجم المعادن النفيسة سابعا: تكوين أسطول تجارى وعسكرى قوى لتسهيل عملية الاستعمار ولتوفير نقل المواد المستوردة من الدول المستعمرة ثامنا: أن تعمل الحكومة على تنفيذ هذه القواعد والأسس بطريقة جيدة سليمة .

ومن هذا المنطلق بدأت الطبقة البرجوازية النظر إلى استيراداتها ووجدت أنها تحتاج إلى بعض السلع التي لا يمكن إنتاجها في أوربا أو المنتجات الزراعية التي لا يمكن أن تزرع في الجو الأوربي، ومن هذه السلع القطن والحرير والعقاقير ومواد الصباغة، والتوابل، والتي كانت تمثل أهم السلع لحفظ اللحوم ، ولكن هذه الطبقة وجدت أن تجارة هذه المواد تحتكر نصفها البرجوازية العربية من خلال نقل هذه المواد عبر الأراضي العربية إلى الموانئ ثم نقلها إلى الدول الأوربية التي تحتكر النصف الثاني من التجارة الدولية لهذه المواد . ولهذا فقد بدأت الطبقة البرجوازية الأوربية تعمل في البرتغال وأسبانيا لأن يكون دخل هذه التجارة كاملا من نصيب الطبقة البرجوازية الأوربية ورفعت شعارات القضاء على قدرات المسلمين عن طريق التجارة. وقد عرفت الطبقة البرجوازية في هذه الدول حقيقة شعور شعوبهم حيث إن العامل الديني المتمثل في القضاء على المسلمين كان أهم لديهم من احتكار التجارة، وهذا الشعار سوف يؤدي إلى إشعال الشعور القومي والرغبة في الاشتراك في هذه الحركة .

أسباب قيام حركة الكشوف الجغرافية والاستعمار:

أولا: النزعة القومية

كان هذا السبب من أهم الأسباب التي دفعت الدول القومية إلى الدخول في هذا المضمار، حيث إن بقاءها متفوقة على المسرح العالمي مرتبط بقدر ما تملكه من مستعمرات. ولقد وجدت هذه الدول من العوامل ما يساعدها على تحقيق هذا الهدف . ومن ذلك أنها وجدت أن هناك شعوبا تعيش في تخلف اجتماعي وثقافي نتيجة لفقرها ومحاربة التقدم العلمي بها، ومن هذه الدول : الهند ودول جنوب شرق آسيا. كما أنه كانت هناك شعوب لم تطلها يد التقدم الإنساني، وعلى الأقل تقدم العصور الوسطى بشيء ولو ضئيل، ومن هذا العالم الجديد الذي كان يحيا حياة العالم البدائي. وتأكيدا لهذا المبدأ نجد أن كروزون Curzon أحد المسئولين الإنجليز عن الشئون البريطانية في الهند يقول: «هي محور عظمتنا ومقياس نجاحنا أو إخفاقنا، ولئن فقدت الهند فليكونن هذا إيذانا بغروب شمس حياتنا» وقد توقف هذا المبدأ على الدولة نفسها وظروفها، حيث إننا نجد أن إنجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال استطاعت تحقيق هذا، حيث إنها نجحت في إقامة حكومة مركزية قوية في وقت مبكر في الوقت الذي تخلفت عن هذا المجال إيطاليا وألمانيا بسبب تأخر قيام الدولة الوطنية القومية فيها.

إلا أنه ثبت في وقت متأخر عدم صحة هذا المبدأ إذ إنه كيف يتسنى لدولة ما أن تربط مستوى تقدمها وبقائها بدولة أخرى مستعمرة، بينما العقل يقول أن تعمل الحكومة على استغلال مواردها على الوجه الأمثل والحد من الاستيراد وزيادة الصادرات والعمل على الاكتفاء الذاتي، والدليل على ذلك ألمانيا والتي كانت من الدول الأوربية التي يحسب لها ألف حساب قبل الحرب العالمية الأولى، ولم يكن لها أيه مستعمرات خارجية، والولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر أحدث الأمم الموحدة وأقلها تمتعا بعوامل الوحدة القومية «الدين – الجنس اللغة» لم تعمل على أن يكون لها مستعمرات خارجية، بل عملت بالوسائل الدبلوماسية على ربط الدولة الأخرى بها تجاريا وسياسيا وثقافيا. كل هذا يثبت عدم صحة ما ذهبت إليه الدول المستعمرة في الرعيل الأول لها من العصورالحديثة .

ثانيا: النشاط المادي:

كان هناك بعض السلع التي تحتاج إليها دول أوربا كالتوابل والسكر والعاج والمعادن، وكانت تأتى إلى دول أوربا عن طريق التجار عبر الأراضي العربية ، ولهذا فإن حكامها المسلمين كانوا المتحكمين في كمية هذه المواد وأثمان بيعها للتجار الأوربيين. هذا بالإضافة إلى الضرائب التي كانت تفرضها الحكومة الشرقية، المارة بها هذه التجارة. فوجدت الدول القومية الحديثة الأوربية أنه لا مجال للحصول على هذه السلع بأثمان مخفضة وكميات كبيرة إلا عن طريق الحصول عليها من بلادها رأسا وعدم الحاجة لوساطة إسلامية أو بندقية أو غيرها .

ولهذا فقد عملت أسبانيا والبرتغال في ذلك الوقت على إيجاد طريق بعيد عن البلاد الإسلامية حتى لاتستفيد البلاد العربية وحتى يتسنى لهم تأمين تجارتهم. ففكروا في إقامة محطات تجارية للقوافل الأوربية في الطريق من أوربا على طول سواحل أفريقيا، ومن ثم وبعد مائتى عام نجح البرتغاليون في كشف طريق يدور حول أفريقيا إلى بلاد الهند والشرق الأقصى، وعرف هذا الطريق بطريق رأس الرجاء الصالح، وقد كان اكتشاف هذا الطريق ضربة قاصمة للاقتصاد الإسلامي وخاصة دولة المماليك في مصر والشام، ونتج عنه تدهور اقتصادي أدى في النهاية إلى أن تذهب دولة المماليك في ذمة التاريخ .

ومن جهة أخرى فإنه وبالإضافة إلى ما سبق ذكره كانت هناك بعض المنتجات التي تحتاجها الدول الأوربية في صناعتها ولا يمكن أن تتوافر في بلادهم، ومن ثم نشأت طبقة تعمل على إقامة شركات في مستعمرات دولهم للقيام بتوفير هذه المنتجات بزراعتها إن كانت منتجات زراعية أو استخراجها إن كانت منتجات نفيسة، ومن ناحية أخرى عملت هذه الشركات على الترويج في المستعمرات لسلع صناعات وطنها وكما لو كانت هذه المستعمرات مجرد سوق للتجار .

ثالثا: العثور على وطن جديد:

هناك بعض الدول التي تعرضت إلى زيادة عدد سكانها زيادة لا تتناسب مع وطنها ولا موارده، وقد كانت هذه الأعداد المتزايدة خطرا يتهدد الدولة في العصر الحديث، إذ إنها تؤدي إلى زيادة عدد العاطلين بها، ومن ثم وجدت هذه الدولة أن استعمار بعض البلاد قد ينفض عن كاهلها هذه المشكلة إلا أن هذا كان له أسوأ الأثر على أصحاب البلاد المستعمرة .

رابعا ـ نتائج عصر النهضة العلمية : جاء عصر النهضة بأفكار جديدة وروح جديدة للبحث والعلم والتنقيب، وضع الأشياء تحت التجربة للوصول إلى قوانين، وقد تقدمت علوم الفلك والعلوم البحرية حتى تم اختراع البوصلة مما كان له أكبر الأثر في تشجيع الطبقة البرجوازية الأوربية على المغامرة البحرية، وعندما ثبت نجاح هذه الاختراعات لجأت هذه الطبقة إلى تكوين أساطيل قوية تعمل في خدمة مصالحها وخاصة الاستعمار . ومن الآثار التي نتجت عما سبق هو اكتشاف كروية الأرض الذي أدى إلى اكتشاف أمريكا الشمالية والجنوبية ومن بعد ذلك أستراليا والقطبين .

خامسا: نشر الحضارة:

ادعت بعض الدول الاستعمارية أنها كانت تسعى للاستعمار تحقيقا لغاية أسمى وهى نشر الحضارة في غير بلاد الحضارة، ودللوا على ذلك من تاريخها الاستعماري حيث إنهم وصفوا أسبانيا ـ التي ظلت تعمل قرونا وسنوات طوال على طرد العرب من أسبانيا، ونجحت في ذلك في عهد فرديناند الكاثوليكى ـ أنها كانت تعمل على نشر المسيحية بعقيدتها الصحيحة في البلاد المفتوحة وأن الملكة إيزابيلا إنما ساعدت كريستوفر من أجل هذا الهدف .

كما أن جماعة اليسوعيين عملوا على استعمار الأجزاء الوسطى في أمريكا الشمالية – البحيرات العظمي والمسيسبي ـ لتحقيق تلك الغايـة وهذا المبدأ كان مثار جدل ونقاش فلو أن هدفهم الحقيقي هو نشر الحضارة في غير بلاد الحضارة فما الذي دعاهم إلى الاستمرار في البقاء في هذه البلاد مع أن هذه البلاد كانت تسير في طريقها إلى الانحدار كلما تقدم بها تاريخ الاستعمار، ومن جهة ثالثة ما الذي دعا هذه الدول المستعمرة إلى أن تنهب خيرات هذه البلاد وتستأثر بها لنفسها. وفي النهاية نجد أن هذا المبدأ مجرد ستار للاستعمار حتى يسلب صفة الإنسانية بعض الشيء من أصحاب البلاد المستعمرة .

الكشوف البرتغالية:

يرجع أكبر الفضل في الكشوف البرتغالية إلى الأمير هنرى الملاح Don Hanrique وهو ابن الملك يوحنا الأول الذي طرد المغاربة من سبتة سنة 1415، وقد تعلم الأمير هنري تعليما دينيا حتى أنه كانت قد أثرت عليه روح صليبية تجاه المسلمين، ويتضح هذا في الكتاب الذي أرسله إلى البابا نيقولا الخامس عام ١٤٥٤: «إن سروري العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنرى أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه الملك جون بوصفه جنديا قادرا من جنود المسيح ليقضى على أعدائه الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة» .

ولقد نشأ هنرى في جو مليء بالخرافات التي تمتلىء بالخيال عن البلاد الواقعة جنوب أوربا، ومن ذلك أن الرجل الأبيض إذا أبحر إلى أفريقيا فإنه سوف يصل إلى نقطة معينة وتتحول بشرته إلى السواد وتكون المياه التي تحيط به مياها. – تغلى، ومن أجل ذلك فقد أراد هنرى الوصول إلى الحقيقة حتى يتبين الأمر فأنشأ أكاديمية بحرية تتكون من مجموعة من كبار العلماء البحريين، وعمل على جمع المعلومات من السفن العائدة من الخارج حتى يتوصل إلى الحقيقة، كما أنه عمل على تحسين بناء السفن حتى أصبحت حمولة السفينة في ذلك الوقت ما بين ثمانين ومائة طن .

هذه كانت بداية تاريخ البرتغالي في الكشوف الجغرافية إلا أننا يمكن أن نقسم الاكتشافات البرتغالية الجغرافية إلى ثلاثة أدوار كما يلى :

المرحلة الأولى (1415 – 1497):

كما سبق أن أشرنا كان الأمير هنرى الملاح هو البداية للكشوف البرتغالية ،

وقد أراد هذا الأمير تطهير الساحل الإفريقي المطل على البحر المتوسط من القرصنة ومن العرب المسلمين، وعندما فشل في الاستيلاء على طنجة سنة 1436 اتجه إلى الساحل المغربي على المحيط الأطلسي، وكان هدفه هذه المرة هو إخضاع أفريقيا وحتى بلاد غانة وإقامة إمبراطورية مسيحية برتغالية في أفريقيا ومنها يبدأ في نشر المسيحية في أنحاء أفريقيا .

بدأت ترتيبات الأمير هنرى، ورأى أن مشروعا كهذا سيتكلف مبالغ ضخمة من المال، ولهذا فإن السبيل الوحيد هو زيادة أموال البرتغالى عن طريق التجارة ، ومن ثم فقد بدأ في اصطياد الرقيق في كل مرحلة بحرية برتغالية خارجة ويقوم ،، وكان يمهد الطريق لاحتلال غانة تمهيدا للوصول إلى القديس يوحنا ببيع الرقيق ، Orester John وهو حاكم الحبشة، وكان ذلك القديس ذا شهرة في ذلك الوقت ، وأراد هنرى أن يأخذ منه المعونة والمساعدة الروحية والعسكرية حتى يستطيع القيام بحملة عريضة لطرد العرب أو لتعميدهم على دين المسيح، وقد استطاع الأمير هنري الاستيلاء على ماديرا وجزر الأزور ومصب نهر الشنغال والرأس الأخضر إلا أنه لم يستطع تحقيق هدفه كاملا إذ إنه توفى سنة ١٤٤٥.

وفي هذه المرحلة استطاع البرتغاليون من اجتياز أسطورة خط الاستواء سنة 1471 ووصلت الكشوف البرتغالية في هذه المرحلة إلى الطريق الجنوبي لأفريقيا ورأس الرجاء الصالح .

المرحلة الثانية (1497 - 1515):

في هذه المرحلة حاول البرتغاليون تكوين إمبراطورية تجارية ضخمة للبرتغال على امتداد الطريق التجاري المؤدي إلى بلاد الهند والشرق الأقصى مع القضاء على كل نفوذ تجاري للعرب المسلمين في هذه المناطق وجعل هذا الطريق ومعه البحر الأحمر مياه برتغالية خالصة للبرتغال، ولا تعمل فيها أية دولة تجارية إلا بعد موافقة البرتغال، وأخذ الموافقة الرسمية التي تسري في هذه المراكز المتناثرة على طول الطريق التجارى، وسوف يتضح هذا من تتبع خطوا هذه المرحلة .

حاول البرتغاليون الوصول إلى الهند عن طريق المحيط غربا إلا أنهم فشلوا في هذا، في نفس الوقت الذي نجح فيه الأسباب فتجددت محاولات البرتغاليين حيث قامت رحلة فاسكو دا جاما Vasco da Gama سنة 1498 للوصول إلى الهند من حول أفريقيا وغادر لشبونة في يونيو ١٤٩٧ وصل إلى قاليقوط في الهند في مايو ١٤٩٨ وهناك وجد أن العرب ذوى نفوذ واسع في السيطرة على التجارة وعلى قاليقوط مركز تجارة التوابل، حيث كانوا ينقلون متاجر الهند إلى بلاد العرب ثم عـاد عن طريق مالنـدى وجنوب أفريقيا إلى لشبونة في سبتمبر سنة ١٤٩٩.

هنا اتضح للبرتغاليين أنه لا سبيل إلى تكوين إمبراطورية بحرية برتغالية مادام العرب هم المسيطرون على التجارة في الهند، ولابد من القضاء على العرب في الهند بقيادة الفاريز كابرال الذي استأنف طريقة للهند ووصل إلى قاليقوط في أغسطس 1500 وعمل على تأسيس أول مستعمرة تجارية في الهند بعد أن تم . الاشتباك مع المسلمين هناك وضرب المدينة ثم قفل راجعا إلى بلاده .

فيما يبدو أن الملك عمانوئيل لم يرض عن هذه النتائج : لأنه كان يطمع فيما هو أكبـر للقضاء على البقية الباقية من العرب وإرغام حاكم قالليـقوط الزاموريين على قبول السيادة البرتغالية على بلاده وتحقيق الغاية الأسمى وهي جعل طريق الهند ملكية برتغالية فقط وعند وصول جاما إلى قاليقوط اشتبك مع الزاموريين وقتله، إلا أن حاكمها الجديد لجأ إلى قانصوه الغورى سلطان مصر الذي رحب بهذا لاستعادة مكانة المماليك التجارية مما دفع دا جمـا إلى عقد أمراء ساحل ملبار ثم قفل راجعا إلى البرتغال . معاهدات مع وهنا أدرك البرتغاليون ضرورة الاستيلاء على جميع المراكز التجارية العربية التي تؤدي إلى الوصول إلى الهند والشرق الأقصى سواء أكانت في البحر الأحمر (عدن) أم الخليج (هرمز) وبعد ذلك فرض السيطرة البرتغالية التجارية عليها وفرض ضرائب باهظة على التجارة المارة في هذه المراكز حتى يضطر التجار وتضطر القوافل إلى اللجوء إلى مراكز البرتغال التجارية، ولهذا الهدف عمل كل من ألميدا وبوكيرك على تنفيذ هذه السياسة .

كان الميدا Almeida يرى أن إنشاء مستعمرات برتغالية متناثرة أمر يقتضى وجود عدد كبير من الجنود للاستـعمـار بعدد لا بأس به وأن إنشاء عـدد من المستعمرات على طول الطريق إلى الهند يحتـاج إلى عدد كبير من الجنود في الوقت الذي لا يتوافر هذا العدد في البرتغال، فالبرتغال شعبها صغير كما أن توزيع الجهود والجنود على هذا العدد من المستعمرات سوف يعرضها للهلاك مع أي مواجهة بحرية أو من أهالي البلاد المستعمرة، ولهذا فإنه كان يرى أن إنشاء مراكز برتغالية متناثرة على السواحل من الهند مع وجود عدد قليل من الجنود أكـثر فائدة، ولهذا فإنه أسس بعضا من هذه المراكز في وانو Onor وكوشين Cochin واشتبك مع المسلمين

بقيادة السلطان المملوكي قنصوة الغوري في ديو عام معركة 1509. وكانت الغلبة من نصيب (الميـدا) إلا أنه قتل بعد ذلك في معركة دارت في مارس 1510.

السيطرة على جميع البوكيرك رأى البوكيرك أنه لا سبيل إلى السيطرة على الهند إلا عن طريق المنافذ الموصلة إليها ولهذا فقد عمل على غلق باب المندب والخليج الفارسي بعد أن استولى على هرمز. بهذا فإنه يكون قد تحكم في جميع المنافذ القديمة التي كانت تخرج منها صادرات الهند ثم استولى على ساحل ملبار وعلى ملقا إلا أنه كان يرغب في الاستيلاء على عدن للسيطرة على البحر الأحمر واستبعاد العرب المسلمين، ولهذا فقد اتجه إليها سنة 1513 وسنة 1515 إلا أنه فشل في ذلك الهدف وتوفي في ديسمبر 1515 .

المرحلة الثالثة (1551 – 1583):

في هذه المرحلة بدأت البرتغال في أخذ طريقها إلى الانحدار بعد أن بلغت أوج عظمتها فبدلا من أن يواصل البرتغاليون فتوحاتهم الاستعمارية نجد أن هدفهم في هذه المرحلة هو المحافظة على ما تبقى من المستعمرات البرتغالية؛ إلا أن الضعف والرهن بدأ يدب في عظام الإمبراطورية البرتغالية منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر بسبب :

أ ـ النظام الاستعماري البرتغالى .

ب ـ الصراعات المستمرة بين البرتغال والعثمانيين .

جـ ـ انتشار النفود الأسباني في البرتغال نفسها حتى استطاع الملك الأسباني فيليب الثاني من الاستيلاء على البرتغال عقب وفاة الملك هنري .

د ـ تدخل الهولنديون في شئون المستعمرات البرتغالية حتى أنهم أنشأوا شركة الهند الشرقية الهولندية The East Company of The United Nrtherlands النظام الاستعماري للبرتغال، نظرا لصغر حجم البرتغال مساحة وشعبا فإنها لم تستطع أن تدعم حكومتها القومية الحديثة داخل القارة الأوربية كما حدث في الحروب الإيطالية، ولهذا فإنها اتجهت إلى تدعيم مركزها خارجيا عن طريق احتكار التجارة الخارجية لأوربا، ولهذا فإنهم كانوا يرغبون في السيطرة على مراكز التجارة ما بين أوربا والهند والشرق الأقصى .

كان البرتغال في حكمهم لهذه المستعمرات يعتمدون على نائب الملك في جوا، وكان هذا النائب هو المسئول على إدارة المستعمرات وعن التجارة الخارجية وحمايتها ونشر المسيحية، وأما فيما يختص بأمر إدارة المستعمرات فإنه ولقصر مدة تولى هذا النائب على المستعمرات كان يعمد إلى جمع أكبر قدر من الأموال، وكان هذا عن طريق فرض الضرائب والإتاوات، مما كان له أكبر الأثر في إرهاق كاهل الشعب، وفيما يتعلق بحماية التجارة الخارجية فإننا نجد أن البرتغاليين قد بالغوا في هذا الأمر لدرجة أنهم كانوا يلجأون إلى أساليب القتل والأسر حتى يؤمنوا هذه التجارة، واتخذوا من هذا سببا في حرق العرب المسلمين بحجة عرقلة التجارة، وأما فيما يتعلق بنشر المسيحية فإنه لما كان أصحاب البلاد لهم عقائدهم الدينية الخاصة بهم ولهم تقاليدهم في أداء طقوسهم الدينية، وكان البرتغاليون أجانب أذاقوهم الهوان ونهبوا أرزاقهم، لذا فإنهم لم يجدوا ترحيبا من أهالي البلاد للدين الجديد الذي رأوا أنه قادم مع وحش إنساني وهو يدعى أنه الرحمة، وهذا مالا يتوافر في معاملتهم لأهالي البلاد .

كانت لشبونة قد أصبحت زاخرة بشتى أنواع الرفاهية والتقدم إلا أن البرتغال ليست لشبونة. فإن المدن الأخرى كانت تعتمد على الزراعة فأدت هذه الحملات إلى أن يترك الفلاحون أراضيهم وينضموا إلى الحملات التي تخرج للاستعمار وبدأت البقية الباقية منهم تلجأ إلى استخدام الرقيق، وكان هذا هو بداية النهاية وبداية البرتغال والتي أضحت في النهاية دولة متدهورة، وبمعنى آخر أصبحت هذه الإمبراطورية ذات مظهر عظيم ودخل قليل .

الكشوف الأسبانية:

في الوقت الذي بدأت البرتغال في البحث عن مستعمرات لها في طريق التجارة الهندية اتجهت أسبانيا هي الأخرى إلى تدعيم مركزها السياسي الأوربي بالكشوف والتوسع الخارجي واتجهت كشوف الأسبان إلى الغرب؛ ذلك الطريق الذي اكتشفه كريستوف كولمبس، ولتتبع تاريخ الكشوف الأسبانية يجب علينا أن نقسمها لمراحل :

المرحلة الأولى (١٤٩٢ ـ ١٥١٦):

كان المخطط الأول والمنفذ لاكتشافات أسبانيا الأولى ذلك الملاح كريستوفر كولمبس Ch. Colombus فقد سيطرت على كولومبوس فكرة أنه يستطع الوصول إلى شواطئ آسيا الشرقية عن طريق الالتفاف من المحيط غربا وأنه توجد هناك أراضي لم تكشف بعد، وقد قام كولومبوس دراسة لهذا إلا أنه لم تلق قبولا في ذلك الوقت من البرتغال التي كانت قد بدأت بالفعل في هذا المجال، حيث إنها كانت محفوفة بالأخطار، ثم لجأ بعد ذلك إلى ملوك. أسبانيا. قد وافقت الملكة إيزابيلا على ذلك وكذلك الملك فرديناند الكاثوليكسي، ولقد قام كولمبس من أجل هذا بأربعة رحلات كشفية بعد أن حفز الملك فرديناند على ذلك بحجة أنه سوف يأتي إليه بذهب كثير . قام كولومبوس برحلاته ابتداء من 3أغسطس ١٤٩٢ وكشف في هذه الرحلة عن إحدى جزر البها ما وجزيرة هايتي والشاطئ الشمالي لكوبا . وأصبح مشكوكا في أمره لدى ملوك أسبانيا إذ لم يستطع إحضار الذهب بالكميات الكافية لتغطية نفقات الحملات كما وعد الملكان ولكن كانت لرحلاته نتائج هامة للغاية، ولم يكن موفقا في رحلته الثالثة 1498 والرابعة ١٥٠٢.

نتائج رحلات كولومبوس:

أعطت الذرائع للملكية الأسبانية في الأراضي المفتوحة مثلما ثبتت الملكية البرتغالية دعائمها في متسعمراتها في أفريقيا وأسيا، فقد حصلت أسبانيا حق الملكية المطلقة في الأراضي الواقعة بعيدا عن جزر أزور والرأس الأخضر شرقا وغربا بمائة فرسخ وحق ملكية الأراضي التي سوف يكتشفونها بقرار من البابا إسكندر السادس ١٤٩٢. وعقدت معاهدة توردیسلاس Tordesillas ١٤٩٤م، وتم الاتفاق على أن يكون هناك خط وهمي من نقطة تبتعد ٣٧٠ فرسخا من جزر الرأس الأخضر تكون الاكتشافات التي تظهر في الغرب من نصيب أسبانيا والاكتشافات التي تظهر في الشرق من نصيب البرتغال، ونتيجة لهذا فقد أخذت البرتغال البرازيل .

كانت اكتشافات كولومبوس فاتحة خير على الأسبان، إذ إنها شجعت المغامرين بعد ذلك على الخروج في رحلات كشفية ، وتم اكتشاف مصب الأمازون .قبولا في ذلك الوقت من البرتغال التي كانت قد بدأت بالفعل في هذا المجال، حيث إنها كانت محفوفة بالأخطار، ثم لجأ بعد ذلك إلى ملوك. أسبانيا. قد وافقت الملكة إيزابيلا على ذلك وكذلك الملك فرديناند الكاثوليكسي،

ولقد قام كولمبس من أجل هذا بأربعة رحلات كشفية بعد أن حفز الملك فرديناند على ذلك بحجة أنه سوف يأتي إليه بذهب كثير . قام كولومبوس برحلاته ابتداء من 3أغسطس ١٤٩٢ وكشف في هذه الرحلة عن إحدى جزر البها ما وجزيرة هايتي والشاطئ الشمالي لكوبا . وأصبح مشكوكا في أمره لدى ملوك أسبانيا إذ لم يستطع إحضار الذهب بالكميات الكافية لتغطية نفقات الحملات كما وعد الملكان ولكن كانت لرحلاته نتائج هامة للغاية، ولم يكن موفقا في رحلته الثالثة 1498 والرابعة ١٥٠٢.

نتائج رحلات كولومبوس:

أعطت الذرائع للملكية الأسبانية في الأراضي المفتوحة مثلما ثبتت الملكية البرتغالية دعائمها في متسعمراتها في أفريقيا وأسيا، فقد حصلت أسبانيا حق الملكية المطلقة في الأراضي الواقعة بعيدا عن جزر أزور والرأس الأخضر شرقا وغربا بمائة فرسخ وحق ملكية الأراضي التي سوف يكتشفونها بقرار من البابا إسكندر السادس ١٤٩٢. وعقدت معاهدة توردیسلاس Tordesillas ١٤٩٤م، وتم الاتفاق على أن يكون هناك خط وهمي من نقطة تبتعد ٣٧٠ فرسخا من جزر الرأس الأخضر تكون الاكتشافات التي تظهر في الغرب من نصيب أسبانيا والاكتشافات التي تظهر في الشرق من نصيب البرتغال، ونتيجة لهذا فقد أخذت البرتغال البرازيل .

٢ ـ كانت اكتشافات كولومبوس فاتحة خير على الأسبان، إذ إنها شجعت المغامرين بعد ذلك على الخروج في رحلات كشفية ، وتم اكتشاف مصب الأمازون .

المرحلة الثانية (1516 – 1600):

في هذه المرحلة من مراحل الكشوف الجغرافية الأسبانية كانت أعظم كشوف جغرافية في العالم حتى الآن، حيث إنه تم الدوران حول العالم في اتجاه واحد من بداية الرحلة وحتى العودة إلى نقطة البداية، مما أثبت كروية الأرض وافتتح الأسبان المكسيك وأمريكا الوسطى وبيرو وأمريكا الجنوبية؛ تلك المساحات الواسعة التي لم تكن معروفة ، وقد بلغت الكشوف الأسبانية في هذه المرحلة أوج عظمتها .

أولا ـ الرحلة حول العالم:

كان هذا المشروع الجغرافي هو أهم مشروع جغرافي وملاحى عالمى تم حتى الآن، وقد اقترن هذا المشروع بشخصيتين عظيمتين كان لهما الفضل الأكبر في إتمام هذا المشروع؛ وأول هذه الشخصيات شخصية الملك شارل الأول ملك أسبانيا الذي أصبح بعد ذلك الإمبراطور شارل الخامس إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وثاني هذه الشخصيات الملاح البرتغالي والمنفذ لهذا المشروع ماجلان Magellan.

يعتبر ماجلان هو وارث تفكير كريستوفر كولومبس حيث إنه ظن هو الآخر أنه يمكنه الوصول إلى جزر التوابل عن طريق الغرب بدلا من السير عن طريق رأس الرجاء الصالح، وذلك عن طريق السير من أسفل أمريكا الجنوبية ، ولكن هذا المشروع رفض من الحكومة البرتغالية بسبب غضب ملك البرتغال عليه، ولهذا فإنه لجأ إلى أسبانيا بعدما أصبح لها صيت في هذا المجال، وقد عرض المشروع على الملك شارل الأول ووافق على هذا إذا إنه كان يريد أن يخوض طريق النضال مع البرتغال في الهند .

رحب الملك شارل بهذا المشروع وتم عقد اتفاق بين التاج الأسباني وماجلان في ٢٢ مارس 1518 تم الإعداد لخروج الحملة وبالفعل خرجت الحملة في خمس سفن أسبانية تحت قيادة ماجلان في أغسطس 1519 من ميناء لوكار san Lucar، حيث اتجهت إلى الجنوب من المحيط الأطلسي ثم إلى الجنوب الغربي حتى وصلت ميناء ريودي جانيوري البرازيلى ثم مصب نهر ريودى لاباتا وواصلت الحملة طريق السير بمحاذاة الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية في اتجاه الجنوب اكتشف ماجلان مضيق أطلق عليه مضيق ماجلان نسبة إليه وفي نفس العام دخل المحيط الهادي الذي أطلق عليه الباسفك Qacifique، اتجهت الحملة إلى الشمال الغربي في طريقها إلى جزر التوابل ووصلت الحملة في مارس ١٥٢١ إلى جزر الفلبين ظنا من ماجلان أنها جزر التوابل ولكن هذا كان في مصلحة أسبانيا حيث إنه اكتشف الجزر التي أطلق عليها الفلبين(٢)، وأصبحت منذ ذلك الوقت تابعة لأسبانيا وحتى استحوذت عليها الولايات المتحدة بعد حرب ١٨٩٨ مع أسبانيا .

إلا أن ماجلان قتل في إحدى المعارك مع البلاد المفتوحة على يد أحد الوطنيين وتولى قيادة الحملة من بعده أحد مساعديه في أبريل ١٥٢١، وفي نوفمبر من نفس العام الذي تولى فيه القيادة وصلت الحملة إلى إحدى جزر التوابل بقيادة تيدور Tidor وحقق حلم ماجلان وبعد ذلك بأربعة أشهر غادرت الحملة في طريق عودتها إلى أسبانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح بعد أن استغرقت ثلاث سنوات وكان لها الفضل في اكتشاف عالم جديد بعيدا عن القارات القديمة المتصلة .

إلا أن هذه الرحلة كانت لها نتائج سيكولوجية بعيدة المدى، إذ إنها نشطت فكرة كامنة لدى الملك شارل الأول في أن العناية الإلهية أرادت له أن يحكم العالم نتيجة لهذه الاكتشافات التي توصل إليها، ورأى أن إمبراطورية الهابسبرج قد بدأت في الظهور إلى حيز الوجود في أوربا والعالم الجديد، وهذا يقتضى بضرورة الحال أن تعمر العالم الجديد بما يلزمها من رجال ومال وما إلى ذلك من ضروريات التعمير، وأراد أن تكون شبه جزيرة أيبريا هي عاصمة هذه الإمبراطورية وكان لهذا التفكير أكبر الأثر على شارل بعد ذلك بعدما أصبح إمبراطورا حيث إنه أكثر انجذابا إلى أسبانيا .

ولكنه وبالرغم مما حققته هذه الحملة الناجحة من مجد لأسبانيا إلا أنه لم تحقق حلم الملك شارل وهو التفوق على البرتغال في حكم الهند، ومن أجل هذا الهدف نجد أن شارل قد أرسل حملتين عسكريتين في سنوات ١٥٢٥ و١٥٢٦ لامتلاك سومطرة وجعلها عمود الارتكاز في الهند للتدخل مع البرتغال في أرباحها التجارية، ولكن هاتين الحملتين كانتا سببا في إثارة القلاقل بين أسبانيا والبرتغال ، إلا أن شارل فكر في الأمر مليا ووجد أنه لا يرغب في إثارة عداوات أخرى وخاصة بعد أن أصبح في موقف وفي حالة الحرب مع فرنسا من أجل السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية، في نفس الوقت الذي ازداد فيه خطر مارتن لوثر في ألمانيا، ولهذاوفقد تراجع عن فكرته سريعا ورأى أن أسبانيا بيد مال ماتشاء الحملات للحصول على التوابل من جزر التوابل عن طريق ممتلكاتها في العالم الجديد دون إثارة عداوة البرتغال والاحتفاظ بعلاقتها الطيبة أسبانيا .

وفي الوقت الذي كانت تسير فيه الحملة التي قادها ماجلان للدوران حول العالم في طريقها، كان الأسبان يقومون بفتح بلاد المكسيك وكانت أولى الحملات الأسبانية حملة 1517

إلا أنها لم تؤت ثمارها، وفي العام التـالي خرجت حملة بقيادة فرديناند كورتيز Cortez، قد نجح كوريتز في فتـح يوكنان وأقام مدينة جديدة في المنطقة تخليدا للفتوح الأسبانية أطلق عليها فيراكروز Vera Cruz واتجه بعد ذلك إلى عاصمة الأزتيك وحاول حاكمها في البداية الاستسلام لكورتيز إلا أن أبناء شعبـه قتلوه وصمدوا أمام كورتيز أكثر من عامين ولم يستطع كورتيز دخولها إلا في أغسطس ١٥٢١، وقد كافأه الملك بأن عينه عليها نائبا عنه في حكمها وبعد ثمان سنوات خشى الملك من أن يستأثر كورتيز بها لنفسه فعزله . وفي الوقت الذي قامت حملات فرديناند كورتيز لاحتلال المكسيك وجه فرنسيسكو بيزارو نظره إلى بلاد الذهب والفضة حيث إن أمريكا الجنوبية كانت تزخر بمناجم الذهب والفضة في هضبة بيرو وشيلي وبوليفيا، وانطلقت الحملة في ١٥٣٢ قاصدة بلاد الذهب، وبالفعل انتصرت حملة بيزارو على أهالي البلاد واستحوذ على مناجم الذهب والفضة إلا أن معاملة بيزارو السيئة لأهالي البلاد كانت سببا في أن يكون فريسة أعدائه في البلاط الأسباني مما أدى في النهاية إلى اغتياله في ليما في يونيو 1541.

وكانت حملة بيزارو فاتحة خير على الأسبان إذ إنهم ازداد نشاطهم بعد ذلك وأرسلوا الحملات لاحتلال منابع الأمازون والبراجواي، وهناك بدأ الأسبان في تأسيس مدن أسبـانية لهم ولاستغلال المناجم على الوجه الأكمل، وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر وصلت أسبانيا إلى فنزويلا وكولومبيا بعد أن انقرض الجنس الانكا، وكان هذا مايميز عصـر شارل الأول الذي كان عصره عصر رخاء واتساع لأسبانيا في الخارج .

نظام أسبانيا الاستعماري:

في الواقع لم يكن الشعب الأسباني يتمتع بالقدر الذي يتناسب مع فتوحات الحملات الاستعمارية في الخارج، فلم يسمـح للشعب الأسباني بالهجرة المطلقة إلا بعد عام 1596. أما بالنسبة لإدارة المستعمرات فإنه كان يطبق القانون السائد في قشتـالة في الهند الغربية. وفيما يتعلق بإدارة الشئون الاقتصادية في المستعمرات، فقد كانت الحكومة الأسبانية تحرص على انتقاء العناصر المهاجرة إلى الهند الغربية بحيث تكون هذه العناصر قادرة على تنمية الاقتصاد الأسباني في هذه المستعمرات. وتم إنشـاء مكتب في أسبانيا نفسها لرعاية مصالح هذه المستعمرات ويسمى مكتب الإدارة للإشراف على الشئون المادية في الهند الغربية .

وبعد أن اتسعت المجالات في الهند الغربية تم تأسيس مكتـب في أشبيلية يسمى غرفة التجارة Cose de Contratacion ووظيفته الإشراف على كل مايتعلق بالاقتصاد في الهند الغربية مـن تجارة ومهاجرين وتنظيم الهجرة وتنفيذ قوانين الملاحة، وهو عبارة عن غرفة للتجارة ومخزن لتوزيع التجارة الأمريكية من صادر وواردة.

أما ا من الناحية السياسية فقد كان هـذا المكتب التجاري الذي أنشئ سنة 1503 هو القائم بالأعمال السياسية إلى أن تأسس مجلس الهند الغربية فصارت له الاختصاصات، وكانت هيئة مستقلة تقوم بتعيين الحكـام نواب الملك جميع وتعيين رجال الدين والأساقفة ولها سلطة عزلهم كذلك، وكان مقر مجلس الهند الغربية هو مدريد . وكان يقوم بالحكم نائب الملك ثم المجلس، وكان الملك يختار لهذه الوظائف من لايدينون بشيء سوى الولاء للتـاج الأسبـاني شخصيا ويعملون لمصلحته الخاصة قبل كل شيء؛ وذلك لزيادة ثرواتهم الخاصة ولحسابهم الخاص بغض النظر عن الكفاءة العلمية أو الخبرة الشخصية .

الاستعمار الهولندي:

كانت الحروب الدينية التي حدثت في أوربا في العصر الحديث في القرن السابع عشر خيرا على هولندا، حيث كانت خاضعة لأسبانيا ولكن بعد انتهاء حرب الثلاثين عاما وعقد صلح وستفاليا حصلت هولندا على استقلالها وانطلقت في تجارة التوابل مع الشرق الأقصى، وقد بدأت التجارة تتحول إلى هولندا بعد ما كانت في لشبونة. حقيقة أن البرتغال كانت هي المكتشفة لطريق هذه التجارة ولكن موقعها الجغرافي لم يكن الموقع المثالي لتكون المحطة التجارية، ولهذا سرعان ما انتقلت هذه التجارة إلى المركز الأمثل لها في هولندا حيث إنها تقع على نهر الراين الذي يخترق قلب أوربا، مما يسهل نقل هذه المتاجر لدول أوربا في مختلف الأماكن وبطرق سهلة وغير مكلفة تكوين الإمبراطورية الهولندية.

بعد ما تحطمت قوة البرتغال على يد أسبانيا وبدأت هولندا في الانقضاض على أملاك البرتغال في آسيا في الهند والهند الشرقية حتى تقلصت أملاك البرتغال وأقاموا مستعمرات ساحلية على ساحل غانة امتلكوا جزيرة موريشيوس Mauritius واستطاع الهولنديون من كشف ساحل شمال أستراليا حيث كشفوا تاسامانيا ونيوزيلاندا، هذا فيما يختص بأملاك هولندا في الهند والهند الشرقية . أما فيما يتعلق بالعالم الجديد فإن شركة الهند الغربية الهولندية عملت على زيادة مساحة الأراضي الهولندية في أمريكا الجنوبية.

وهناك بعض الملاحظات على الاستعمار الهولندي ومنها : أولا: فيما يتعلق ببداية حركة الاستعمار الهولندي فإن منشأ هذه الحركة هو تذمر التجار الهولنديين من احتكار تجارة البرتغاليين للتوابل، وبعد أن تأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٢ والتي حصلت على امتياز احتكار التجارة وغزو الأراضي وعقد المعاهدات وبناء الحصون بدأت هذه الشركة في دخول الهولنديين إلى أندونيسيا إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك إلا بعد 1619 وتثبتت أقدامهم في ١٦٥٤ بعدما توالت المحطات التجارية البرتغالية في السقوط وانتقلت تجارة الهند الشرقية تماما إلى هولندا .

ثانيا: كانت السياسة الاقتصادية الهولندية في هذه المستعمرات هو تحقيق أكبر قدر من المنفعة الاقتصادية لهولندا، وعندما وضع مشروع لسيطرة هولندا السياسية على سيلان رد مجلس إدارة الشركة على هذا الاقتراح : «إن مثل هذا العمل قد يكون عمل ملك عظيم وطموح، ولكنه ليس عمل تجار لايبحثون عن الأرباح» . عنهم نفقة النقل، وبعد أن ازدادت خبرة الهولنديين الاستعمارية وجدوا أن سياسة الاستغلال الاقتصادي لأهالي المستعمرات أربح بالنسبة لهولندا من التجارة، حيث إنها تكف ، ومن هنا بدأت شركة الهند في دفع أثمان المحاصيل الزراعية مقدما ولسنوات لضمان احتكارهم لها وبيعها بالثمن الذي يترائي لهم، هذا جهة، ومن جهة أخرى يكون لهم الحق في انتزاع ملكية الأراضي في حالة عدم وفائهم بالعقد.

ثالثا: فيما يتعلق بالإدارة السياسية للهولنديين في المستعمرات الأندونيسية فقد كانت في بداية حكمهم هو إدارة الحصون والمؤسسات التي تمكن هولندا من السيطرة على البلاد، ولكن في القرن الثامن عشر رأت الإدارة الخاصة بشركة الهند الشرقية أن السيطرة المباشرة على الأراضي في المستعمرات عن طريق نقل الملكية إلى هولنديين هي أجدى من السيطرة العليا، ومن ثم بدأ الهولنديون في نقل ملكية المناطق الحساسة إلى هولندا، ومن ذلك فقد تم نقل ملكية

موانى أندونيسيا إلى هولندا؛ ومن خلال نشاط التجار الهولنديين في سومطرة أصبح التجار الهولنديون هم محتكرو تجارة هذه الجزر .

رابعا: وفيما يختص بعلاقة المستعمرين الهولنديين بأهل البلاد المستعمرة فإنه مما سبق يمكننا أن نتخيل الصورة التي كانت عليها العلاقة بين الهولنديين والأندونيسيين، فبعدما ارتفعت الأسعار العالمية للبن حولت الكثير من الأراضي إلى ضياع لزراعة البن، وكان على الفلاحين الأندونيسيين أن يقدموا لشركة الهند الشرقية بمقابل زهيد جدا، وهذا يوضح مدى بشاعة السيطرة الهولندية؛ وكذلك الهولنديون في إنشاء مزارع أخرى بدلا من الأرز مما أدى إلى وفاة فقد توسع الكثير .

وفي ذلك الوقت وفي غضون هذه الاضطهادات والاستغلال الأجنبي من قبل الهولنديين وجد الأندونيسيون أن السبيل للخلاص مما هم فيه من ظلم وجور هو الدخول في الإسلام؛ وقد كان الإسلام منتشرا بالفعل في مراكز التجارة الكبرى هذا لما يحتويه الإسلام من مبادئ تدعو إلى خير البشرية ولعدم أفضلية أحد من البشر على غيره؛ كما أنهم رأوا في دخولهم الإسلام مقاومة سياسية للاستعمار الهولندي المسيحى، ومن ثم بدأت إمبراطورية هولندا في أندونيسيا التقلص وغدت في موقع البرتغال القديم التي سبقتها إلى هذه البلاد إلا أن موقف هولندا كان أسوأ من موقف البرتغال؛ ذلك أن هولندا دخلت في مجال الصراع الفرنسي الإنجليزي من أجل رغبة كل منهما في السيطرة على أماكن مجاور وهولندا تقع في الوسط مابين فرنسا المتلاحمة الحدود معها وإنجلترا من الجهة المطلة على البحر، ومن ثم كان مصير الإمبراطورية الهولندية أسوأ من مصير إمبراطورية البرتغال .

الاستعمار الفرنسي:

بالرغم من أن فرنسا كانت قد حققت وحدتها مبكرا واستطاعت إقامة حكومة مركزية، وبالرغم من أنها كانت قوة عسكرية يحسب لها ألف حساب إلا أنها قد تأخرت في مجال الاستعمار الخارجي، وربما يرجع ذلك إلى أن فرنسا كانت من ذلك النوع من الدول التي حاولت تدعيم مركزها وحكومتها عن طريق التوسع داخل نطاق القارة فكان ذلك سببا في الحروب الإيطالية حيث إنها كانت تبغى السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية من أجل الزعامة السياسية في القارة .

ومما لاشك فيه أن الحروب الإيطالية كان لها أكبر الأثر على فرنسا فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي والعسكرى، وهذا ما أدى بفرنسا إلى تأخرها في مجال التوسع الخارجي، ولهذا فإن فرنسا لم تدخل هذا المضمار إلا في منتصف القرن السادس عشر حيث إن السياسة الفرنسية كانت تبغى الوصول إلى هدفين وهما وصول فرنسا إلى حدودها الطبيعية وبناء قوة بحرية كبيرة للتوسع خارج القارة الأوربية . ومن أجل تحقيق هذه الغاية كان على فرنسا تكوين أسطول بحرى قوى لتخوض هذا المجال وسط مجموعة من الدول سبقتها إليه. وكان هذا الشيء لايتوفر لفرنسا، ذلك أنها كانت قد فقدت الكثير في حروبها الداخلية في القارة كما أنها كانت موزعة القوى بين بحرين تطل عليهما، في نفس الوقت الذي كانت مضطرة فيه إلى مواجهة قوة الإمبراطورية الهولندية .

التوسع الفرنسي:

أ- العالم الجديد: استطاع الملاحون الفرنسيون في النصف الثاني من القرن السادس عشر من الوصول إلى العالم الجديد، وقد اكتشف الملاح الفرنسي كارتييه مصب نهر سانت لورنس وتوسع الفرنسيون بعد ذلك حتى وصلوا إلى مونتريال وعبثا حاولوا التوسع في كندا إلا أن محاولاتهم فشلت بسبب البرد القارس وعدائهم الشديد للهنود، إلا أنهم نجحوا في ذلك بعد قرن وأقام دى شامبلان مستعمرة كيبيك الفرنسية في كندا التي كانت المركز الذي استمد منه الفرنسيون العزم . وفي عام ١٦٨٢ استطاع البحار الفرنسي لاسال من كشف نهر المسيسبي والذي بدأ الفرنسيون في الانتشار من حوله مكونين إمبراطورية فرنسية في القارة الجديدة واستطاعوا في النهاية من إنشاء مستعمرة لوزيانا، ولكن الفرنسيين فقدوها بعد ذلك .

ب- التوسع الفرنسي في العالم القديم: بعدما تداعت قوة الإمبراطوريات البرتغالية والأسبانية والهولندية في جنوب شرق آسيا اتجهت فرنسا إلى الهند وأقامت مراكز تجارية على شاطئيها الشرقي والغربي واتخذت من هذه المراكز نقاطا لاندفاع الفرنسيين في الداخل والتوغل في الهند ومن هذه المراكز التجارية التي أقامها الفرنسيون على شواطئ الهند .

الاستعمار البريطاني:

بداية كان موقع الجزر البريطانية منفصلا عن القارة أمرا لـه أكبر الأثر في قناعتها اقتصاديا دون التوسع، فقد استمرت في بداية العصر الحديث تعتمد على تجارة الصرف، وبعد أن بدأت حركة الكشوف الجغرافية في العصر الحديث لم تدخل إنجلترا هذا المضمار إلا متأخرا في القرن السابع عشر، وقبل ذلك كانت إنجلترا قد بدأت في استغلال موقعها وبدأت في اللجوء إلى القرصنة البحرية ، وكانت تعترض السفن الأسبانية القادمة من العالم الجديد قاصدة أسبانيا محملة بالمعادن النفيسة، وهذا ما أدى إلى دخولها في صراع مع أسبانيا وقصدت أسبانيا غزو بريطانيا بالأرمادا Arriada سنة 1588 وهذا مانتج عنه تحطيم الأسطول الأسباني في معركة ضد الإنجليز؛ وكان على بريطانيا أيضا مواجهة هولندا وفرنسا؛ وقد بدأت هاتان الدولتان في الصراع من أجل السيطرة فتدهورت هولندا وبقى لإنجلترا مواجهة فرنسا وبدأت ممتلكات الدولتين تئول إلى إنجلترا .

على أن هناك بعض الملاحظات على المستعمرات الإنجليزية وهي :

أولا: لجأ المستعمرون الإنجليز إلى اضطهاد السكان الأصليين من الهنود الحمر وإبادة هؤلاء السكان، ونشبت الحرب بين المستعمرين والسكان الأصليين سنة ١٦٦٢ وانتهت بإبادة معظم هؤلاء السكان.

ثانيا: أخذ المستوطنون الإنجليز في استجلاب الرقيق لاستخدامهم في الزراعة والصناعة، وأصبحت ولايات الجنوب هي متصدرة هذه التجارة، وكان هذا هو السبب الذي اندلعت به الحرب الأهلية التي اجتاحت الدولة الأمريكية في بداية عهدها بالجمهورية (1861 – 1865).

نتائج حركة الكشوف الجغرافية والاستعمارية:

أولا: النتائج الاقتصادية:

1 ـ الثورة التجارية: تتمثل هذه الثورة في انتقال مركز التجارة في أوربا من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي لتدفق الذهب والفضة، وكانت أكبر دولتين مستفيدتين من هذا هما أسبانيا، والبرتغال التي تدفق عليها الذهب والفضة بكميات من ساحل غرب أفريقيا والأكثر منها أسبانيا حيث إنها كانت تمتلك مساحات واسعة في أمريكا الشمالية والجنوبية (العالم الجديد)، وكانت هذه المستعمرات التي تملكها تفيض بمناجم الذهب والفضة (بيرو ـ المكسيك) حتى غدت السفن الأسبانية تحمل العدد الكبير من الفضة والذهب غير المصنع ثم تقوم بصهره في سبائك وبيعه في أسواق أوربا .

إلا أن أسبانيا لم تستطع أن تحكم قبضتها على المعادن النفيسة في مستعمراتها في العالم الجديد فدخلت في هذا المجال هولندا، وإنجلترا، وفرنسا وكان لهم نصيب من المواد النفيسة وأدى زيادة هذه الكميات الكبيرة من المعادن النفيسة على توافر العملة بشكل كبير في أوربا مما أدى إلى ازدياد الأسعار .

٢ ـ استثمار رءوس الأموال: بدأت تظهر في هذه الفترة الرغبة في امتلاك الدول التي لديها المواد الخام اللازمة لإدارة الصناعة في الدول الأوربية ولاستثمار رءوس الأموال فيها، ومن هنا أصبحت المستعمرات كمصدر هام للمواد الخام وسوق لتصريف هذه المنتجات بعد ذلك أو لاستخدامها كمزارع كبيرة لمواد زراعية نقدية غالية الثمن مثلما فعلت هولندا مع أندونيسيا .

3 ـ إنشاء المؤسسات المالية: نتيجة للنشاط التجاري والاقتصادي الأخذ في التزايد عاما بعد عام لجأ بعض القادرين إلى إنشاء بورصات عالمية حيث تتركز فيها العمليات التجارية من بيع وشراء وتحديد الأسعار العالمية، وأدى هذا إلى التركيز الشديد في العمليات التجارية، ومن هذه البورصات بورصة ليون Lyon وبورصة أنفرس Anvers، وقد أصبح أصحاب هذه المؤسسات المالية الضخمة ذوى ثروات طائلة مما دعاهم إلى شراء ضياع بأكملها كالتي تشتريها الدول المستعمرة وكانوا يحصلون على تأييدهم من سياسة العصر كالإمبراطور شارل الخامس .

4 ـ تدهور البلاد العربية : تأثر العرب تأثرا كبيرا بحركة انتقال التجارة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي؛ ذلك أن هذه التجارة كانت تدر عليهم دخولا عالية باعتبارهم وسطاء بين الصين والهند من جهة وأوربا من جهة أخرى، وكانت تمر هذه التجارة عبر الأراضي العربية وكان أهالي البلاد يجنون من ورائها منفعة كبيرة وكانت الحكومات القائمة على طرق النقل لهذه التجارة، مثل دولة المماليك تفرض الضرائب على هذه التجارة ذات العائد الهام الثابت لدولة،إلا أنه بعد اكتشاف طريق الأطلسي ورأس الرجاء الصالح فقدت البلاد العربية هذه الفائدة ثم إن الأسواق العربية أصابها الفقر. وقد حاولت دولة المماليك مع جمهورية البندقية ضرب هذا الطريق إلا أن المماليك هزموا خاصة في معركة ديو 1509 .

ثانيا ـ النتائج السياسية :

نتيجة للمكاسب المادية الكبيرة التي كانت تجنيها الدول من خلال الاستعمار واحتكار تجارة الشعوب المستعمرة بدأ التنافس بين الدول الأوربية ، ولكن ليس في القارة الأوربية وإنما فيما وراء البحار من أجل السيطرة ولاستثمار مواردها الاقتصادية سواء أكانت معادن نفيسة أو زراعية، أو أن تكون معبرا للتجارة إلى الغرب. ومن صور هذا التنافس تنافس أسبانيا

والبرتغال، ثم تنافس هولندا وأسبانيا، ومن بعدهم فرنسا وهولندا من أجل السيطرة على اقتصاديات جنوب شرق آسيا .

ثالثا ـ النتائج الثقافية :

1 ـ تطور العلوم: كان لحركة الكشوف الجغرافية أثر كبير في نمو وتطور بعض العلوم، فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت قد تغيرت المبادئ الجغرافية القديمة تغيرا جذريا،فنجد أن هناك معلومات جديدة عن الأرض من حيث حجمها وشكلها والقارات الموجودة عليها وعدد المحيطات، وكذلك فقد حدثت تغيرات في علم الفلك فقد ظهرت لعلماء الفلك نجوم جديدة لم يتوصلوا إليها إلا عن طريق الإبحار إلى الجنوب، وما كانوا ليصلوا إليها بمراصدهم في القارة الأوربية . وفي المجال التاريخي لم تعد المعلومات التاريخية مقصورة على القارات القديمة فقط (أسيا ـ أوربا ـ أفريقيا) بل شملت القارات الجديدة المكتشفة؛ وفي الزراعة كشفت محاصيل زراعية جديدة لم تكن أوربا تعلم عنها شيئا، ومن هذه المحاصيل البطاطس – التبغ – الكاكاو وغدت محاصيل أساسية لها بعد ذلك .

٢ – نشر المسيحية: من نتائج الكشوف الجغرافية أنها أدت إلى إدخال عدد كبير من سكان المستعمرات إلى المسيحية، وكان من دوافعهم إلى هذا الحقد والكره الشديد الذي يكنونه للمسلمين والإسلام، ومن ثم فقد كانت الحملات تخرج من أوربا ومعها مبشرون مسيحيون يعملون في المستعمرات على إدخال أهلها إلى المسيحية، وقد نجحت هذه المحاولات بشكل جدي في العالم الجديد الذي كان لا يعرف شيئا عن الإسلام ولا المسيحية، أما المستعمرات في جنوب شرق آسيا فإن هذه المحاولات التبشيرية لاقت مصاعب جمة؛ ذلك أن شعوب هذه البلاد كانت لها معتقداتها الدينية الخاصة التي لايريدون تغييرها هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان الإسلام أسبق إلى هذه البلاد من الأوربيين إذ دخل الدعاة إلى الإسلام منذ عصر صدر الإسلام في العصور الوسطى، ولهذا فإن هذه المحاولات نجحت بالفعل ولكن في العالم الجديد أكثر .

3 ـ انتقال أهالي المستعمرات من العصر الوسيط إلى العصر الحديث : كان من الآثار التي تركتها حركة الاستعمار هي نقل أهالي البلاد المستعمرة من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، حيث إنها وجدت نفسها مضطرة إلى ذلك حتى تستطيع أن تتمشى في علاقتها الدبلوماسية مع الدولة المستعمرة لها .

4 ـ تغير حياة أهالي المستعمرات: من الواضح أن الغرض الأساسي من حركة التوسع والاستعمار الأولى هي التجارة، ومن ثم فقد نشأت في هذه المستعمرات طبقة من التجار يعملون في التجارة مع الدول المستعمرة وفي خدمتها مما أدى إلى ازدياد ثرواتها، ثم إن هذه الطبقة تطلعت إلى النفوذ السياسي كما بدأت تنمو في إطار الانتقال من نظامها القبلي إلى حياة المدن والمراكز التجارية، كما بدأت في الانتقال التدريجي من الداخل إلى الخارج حيث السواحل التي تعتبر مراكز تجارية كبيرة

رابعا ـ النتائج الاجتماعية :

1 ـ التفرقة العنصرية: أوجدت حركة الاستعمار الأولى نظام التفرقة العنصرية وسيادة الجنس الأبيض على غيره، وإن الأجناس الأخرى غير البيض في خدمة أسيادهم البيض، وأباح لهؤلاء

البيض تملك الأراضي والمصادر الاقتصادية مالم يكن يمتلكها البيض، وأباح لهم حرية استغلال الأوطان التي يستعمرونها كيفما شاءوا، وإنه لمن الأسف أن يكون أحد أعلام الثورة الفرنسية والتي ساعد على تقدم العلم والقانون في هذه الفترة يكون قد نادى بذلك وهو «منتسيكو» والذي نادى بأحقية تسيد الأبيض على الأسود، وقال هذا في كتابه «روح القوانين» .

٢ ـ معاناة سكان المستعمرات: قاسى سكان المستعمرات كثيرا من جراء الاستعمار، وكان هذا يختلف حسب الدولة المستعمرة والمنطقة ونوع المعاناة ، فإننا نجد أن هولندا قد اضطهدت المستعمرين في أندونيسيا وفرضت عليهم محاصيل لايرغبونها؛ كما أن البرتغاليين كانوا يقومون باضطهاد المسلمين الذين يقعون تحت أيديهم وعلى حدود مستعمراتهم، وكانوا يبالغون في نشر المسيحية لدرجة أنهم كانوا يخيرون الرجل بين الدخول في المسحية أو القتل، أما في العالم الجديد فإننا نجد أن المستعمرين الأوربيين في أمريكا الشمالية عملوا على اضطهاد وقتل الهنود السكان الأصليين حتى أنه لم يبق منهم حتى الآن العدد القليل في غرب الولايات المتحدة وكندا، أما في أمريكا الجنوبية فإن الحال كان مختلفا تماما؛ ذلك أن السكان الأصليين كانوا يندمجون مع المستعمرين في حياتهم ويتعلمون لغتهم ويعملون في خدمتهم ويعتنقون دينهم .

حركة الإصلاح الديني

أسباب قيام حركة الإصلاح الديني في ألمانيا :

هناك جملة من الأسباب تفسر قيام حركة الإصلاح الديني في ألمانيا قبل غيرها، ومن هذه الأسباب : أولا ـ طبقة البرجوازيين: كما سبق وأن أشرنا فقد ظهرت طبقة عملت في مجال التجارة والصناعة وازدادت ثرواتها وتضخمت، وقد حلت هذه الطبقة محل طبقة الأمراء في توجيه حكم ألمانيا، وكانت هذه الطبقة تعمل على تدعيم مركزها وحماية نفسها عن طريق اللجوء إلى رجال الدين لمواجهة الأمراء والإمبراطور، ولهذا فقد استغل رجال الدين ذلك في فرض الضرائب والأموال الضخمة على الشعب ولهذا فقد أثقلت كاهل الشعب بهذه الأعباء .

ثانيا ـ طبقة الفرسان: كانت المانيا تزخر بعدد كبير من الفرسان، وهؤلاء الفرسان من طبقة النبلاء إلا أنهم فشلوا في تطوير أنفسهم ومواكبة ركب التقدم الذي بدأ يظهر مع بداية عام النهضة، فقد كان اعتمادهم الأساسي على الأرض في الوقت الذي تضاءلت فيه قيمة الأراضي الزراعية كمصدر أساسي للثروة . كذلك فإنهم لم يستطيعوا مواكبة تطور أساليب الحرب والقتال، وكانت هذه الطبقة قد أخذت تفقد قدراتها في الوقت الذي كانت فيه منزلة الفرد تتوقف على قدر ماله وفكره، ولهذا كانت هذه الطبقة تحقد على الطبقة البرجوازية وتتحين الفرصة لضرب النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتطورة .

ثالثا ـ طبقة الفلاحين: كانت هذه الطبقة حقلا خصبا للنهب من الطبقات الأخرى في وقت كانت هذه الطبقة تئن من التدهور الاقتصادي الذي حل على الزراعة، فلقد كانت هذه الطبقة المجال الوحيد لطبقة الأمراء لنهبها ومجالا سهلا لرجال الدين لفرض الرسوم المختلفة، ولم يكن لها أية امتيازات اقتصادية أو اجتماعية، ولهذا فقد وجدت في الإصلاح الديني فرصة لإنقاذ أنفسهم مما هم فيه من ظلم وجور.

رابعا ـ الصراع بين الإمبراطورية والبابوية: كانت هناك رواسب تاريخية في العقلية الألمانية إزاء البابوية فكثيرا ماكانت تنشأ الصراعات بين الكنيسة والإمبراطورية مثل الصراعات التي تنشأت بين الإمبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع فنشأت لهذه الأسباب كراهية الشعب الألماني لكنيسة روما .

خامسا ـ اختراع الطباعة: كانت ألمانيا موطن اختراع الطباعة عن طريق الحروف المتحركة مما ساعد على نشر الكتاب المقدس وانتشاره في ألمانيا، ومنذ ذلك الوقت بدأ الرعايا في قراءة الكتاب المقدس واكتشفوا أن مايروى عليهم من جانب رجال الدين به مخالفات ومتناقضات لما هو موجود في الكتاب المقدس، وبدأ منذ ذلك الحين الشك يساور العقول في حقيقة ورجال الدين.

رأينا كيف أدى ظهور الطبقة البورجوازية التجارية الأوروبية إلى تغيير وجه الحياة في أوروبا، وكيف تغيرت نظرة الناس إلى عادات وتقاليد العصور الوسطى، فأخذت هذه العادات والتقاليد تتزعزع أسسها مع انهيار المجتمع الإقطاعي وبناء المجتمع البورجوازي، كما أخذ البناء السياسي والفكري والديني والقانوني والفلسفي في الانهيار مع انهيار العلاقات الإقطاعية القديمة وقيام العلاقات البورجوازية الجديدة.

وكانت الكنيسة في ظل العلاقات الإقطاعية قد استطاعت أن تصوغ الدين في شكل يتفق مع هذه العلاقات، فعملت على تمجيد حياة الزهد والتقشف، والنهي عن التمتع بجمال الحياة ونعيمها، ودعوة الناس إلى تعذيب النفس وحرمانها، استعدادا لنعيم الدار الآخرة. وذلك بغرض حمل الناس على قبول الاستغلال الإقطاعي في إذعان واستسلام. وكانت الكنيسة تطلب إلى الناس اتباع تعاليمها دون مناقشة، الأمر الذي أمات فيهم روح البحث والابتكار، وأعمى إنسان العصور الوسطى عن رؤية جمال العالم. فقد كان الجمال في نظره رجسا من عمل الشيطان، وكان الجهل في نظره مقبولا عند الله، لأنه دليل على صدق العقيدة وقوة الإيمان.

وفي الوقت الذي كانت الكنيسة تقوم بهذا الدور إزاء الجماهير الكادحة، كانت تمارس الاستغلال المادي لهذه الجماهير بأشد مما كانت تمارسه طبقة النبلاء الإقطاعيين! وكان البابوات في روما يعيشون حياة الترف، وانغمس بعضهم في حمأة الرذيلة. كما تمتع رجال الكنيسة بالكثير من الامتيازات والحقوق المدنية التي لم يكن يتمتع بها سائر أفراد المجتمع، وكانت الكنيسة إلى جانب امتلاكها لإقطاعات واسعة معفية من الضرائب، لها الحق في جمع نوع من الضرائب، وهي العشور.

وفي الوقت نفسه، لم تكتف الكنيسة بما كانت تتمتع به من مركز سام في المجتمع الإقطاعي بحكم دورها الديني، بل أراد البابوات إخضاع الأباطرة لسلطتهم، وبمعنى آخر إخضاع السلطة المدنية للسلطة الدينية، رغم أن النظرية المسيحية تؤكد أن الكنيسة والدولة تستمدان سلطتيهما من الله، الذي أوكل لواحدة حكم الروح، والأخرى حكم البدن، الأمر الذي أدى إلى قيام النزاع بين البابوية والإمبراطورية. وقد كان من الطبيعي، مع إنهيار المجتمع الإقطاعي، وظهور طبقة جديدة على أنقاض هذا المجتمع، بمفاهيم ومثل جديدة، وبأسلوب في الحياة والتفكير يختلف عن أسلوب العصور الوسطى، أن تصحو أذهان الناس على مساوئ الكنيسة ومفاسدها، وأن تتمرد نفوسهم على قيودها ونظرياتها، فوقعت سلسلة من ردود الفعل العنيفة

التي نقلت الناس من عصر إلى عصر، وانتهت بالقضاء قضاء مبرما على كنيسة العصور الوسطى، وبناء هيكل كنسى جديد يتفق مع علاقات الإنتاج الجديدة، وما ترتب على هذه العلاقات من قيام بناء علوى جديد.

وقد لعبت الطبقة البورجوازية الدور الرئيسي في تحطيم سلطان كنيسة العصور الوسطى. فلقد كانت هذه الطبقة، حين برزت أوروبا من العصور الوسطى، هي الطبقة الثورية ـ كما رأينا ـ وكان قد سبق لها أن بلغت مركزا مرموقا في المجتمع بفضل ثرائها القائم على رأس المال، ولكن هذا المركز مع ذلك كان لا يتلاءم مع قوتها وقدرتها على التوسع والامتداد، وبالتالي، لما كان النظام الإقطاعي هو الذي يقف حائلا دون نموها وتطورها، فقد كان عليها أن تحطم هذا النظام.

ولكن الكنيسة الكاثوليكية كانت المركز الدولي العظيم للإقطاع، وهي التي وحدت أوروبا الغربية الإقطاعية، وجعلت فيها، برغم كل الحروب الداخلية، نظاما سياسياً موحداً يقف إزاء الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية المنشقة، والممالك الإسلامية، على حد سواء، وأحاطت الأنظمة الإقطاعية بهالة من القداسة، ونظمت طبقاتها وفق الأنموذج الإقطاعي، وأخيرا كانت الكنيسة أقوى سيد إقطاعي، وتملك ثلث أرض العالم الكاثوليكي ـ ولهذا كان لابد، قبل توجيه هجوم ناجح إلى النظام الإقطاعي الفاسد في كل بلد، من تحطيم نظامه المركزي المقدس.

وفضلا عن هذا، فقد صاحب نمو البورجوازية، عملية إحياء العلوم العظيمة، من ذلك، وميكانيكا، وطبيعة، وتشريح، وفسيولوجيا. في حين كان العلم في العصر الإقطاعي الخادم المطيع للكنيسة، ولم تكن تسمح له بأن يتخطى الحدود التي رسمتها العقيدة. هي يتبين من كل ذلك أن البورجوازية كانت الطبقة التي يعنيها ـ أكثر من غيرها ـ النضال ضد دعاوى الكنيسة الكاثوليكية، ذلك أن كل صراع في ذلك الوقت ضد الإقطاع كان لابد أن يجرى تحت ستار ديني، أي يجب أن يكون موجها ضد الكنيسة أولا. ولكن إذا كانت الصيحة بدأت من البورجوازية، فقد كان من المحقق أن يتردد صداها في طبقات أخرى. فقد تردد صداها في جماهير الفلاحين الذين كان عليهم أن يكافحوا من أجل وجودهم ضد سادتهم الإقطاعين، كما تردد صداها في طبقة الفرسان الذين كان عليهم أن يكافحوا ضد سيطرة كبار النبلاء.

(ثانيا) الإصلاح الديني في المانيا:

1 ـ أسباب الإصلاح الديني:

وهناك جملة أسباب جعلت هذه الظروف تنضج في ألمانيا بالذات، وتفسر لم قامت حركة الإصلاح الديني في ألمانيا، بدلا من قيامها في إنجلترا أو السويد مثلا .

فمن ناحية، فقد أصبحت المدن الجديدة منذ نهاية القرن الرابع عشر ذات أثر واضح في مقدرات الشعوب الألمانية، فإن المدن من أمثال فرانكفورت Frankfurt وستراسبورج Strassburg ونورمبورج Nuremberg وغيرها من مراكز النشاط التجاري والصناعي، قد أخذت تلعب دوراً مهماً في حياة ألمانيا، فقد ظهرت طبقة من الممولين الذين برز من بينهم بيت فوجر Fuggers، سيطرت على تجارة ألمانيا مع إيطاليا الشمالية والأراضي المنخفضة ومع الشرق أيضا، وكان المال هو أهم مصادر قوتهم. وقد أصبحت هذه الطبقة قبلة أنظار الأمراء

والحكام يطلبون منها المال لسد احتياجاتهم، وبفضل هذا المركز الاقتصادي الممتاز، فرض البورجوازيون سيطرتهم الواسعة على كافة نواحي الحياة في زمنهم.

وإلى جانب هذه الطبقة كانت توجد طبقة الفرسان الساخطين. وكان انحلال هذه الطبقة من النبلاء الضعفاء، قد بدأ منذ القرن الثالث عشر عندما تضاءت قيمة أراضيهم بسبب التطور الاقتصادي، فلم تصبح الأرض مصدر الثروة الوحيد، وتغيرت أساليب القتال وأدواته وفنون الحرب، ففقدت هذه الطبقة مبرر بقائها. ومع أن قلائل منهم استطاعوا الاحتفاظ بشئ من امتيازاتهم، مثل فرسان الراين وسوابيا Swabia فرانكونيا -Fran conia، فإن الأغلبية الكبرى خضعت لسيادة الأمراء الأقوياء، ولم تحتفظ إلا بالقليل من امتيازاتها النوعية. ولهذا أصبح هؤلاء الفرسان متحفزين دائما للثورة ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم.

وإلى جانب هذه الطبقة الساخطة كانت توجد طبقة أخرى أشد سخطا، هي طبقة الفلاحين. فقد كان هؤلاء يعيشون على هامش الحياة بمعزل عن التطورات العميقة التي شهدتها المدن الألمانية، حيث كان أفراد الطبقة البورجوازية قد قطعوا شوطا بعيداً في مجالات التقدم والرفاهية.

وكان هؤلاء الفلاحون الألمان يرسفون في اغلال «القنية» وقيود الإقطاع، وكانوا محل استغلال مشترك من الأمراء ورجال الكنيسة والفرسان، إذ كانوا نهبا لشتى أنواع الضرائب نقداً وعينا وسخرة، ويحرم عليهم ممارسة كثير من الحقوق، فقد كانوا يحرمون من ممارسة صيد الأسماك في الأنهار والقنوات، وصيد الحيوانات في الغابات، في حين كانت تنتهك أراضيهم وبيوتهم وأعراضهم. وكان عداؤهم لرجال الدين شديدا، فقد نددوا بالأعباء المالية التي فرضها عليهم هؤلاء، وبإسرافهم في فرض ضريبة العشور وغيرها من ضرائب ورسوم مختلفة الأسماء والأنواع.

وبالإضافة إلى ذلك فهناك أسباب أخرى تفسر قيام حركة الإصلاح الديني في ألمانيا وهي أن الألمان كانوا يحقدون منذ القدم على الكنيسة الكاثوليكية في روما، اذ كان النزاع المستمر بين البابا والإمبراطور الألماني (إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة) سبباً في أن كل فريق كان يشعر نحو الآخر بعداء شديد. وفضلا عن ذلك ففي الدول الأوروبية الأخرى كانت مقاليد الحكم في أيدى ملوك أقوياء استطاعوا حماية رعاياهم من جشع رجال الدين، ولكن في ألمانيا، حيث كان الإمبراطور يحكم مجموعة من الأمراء الأقوياء، وليس له إلا ظل من السلطة، فإن البورجوازيين كانوا تحت رحمة القساوسة والمطارنة مباشرة، الذين كانوا يحاولون جمع المال لصالح تلك الكنائس الضخمة، التي كان إنشاؤها هواية البابوات في عصر النهضة. وهناك سبب مهم آخر، هو أن ألمانيا كانت موطن الطباعة، منذ اخترع جوتنبرج Gutenberg (١٣٩٧ - ١٤٦٨م) الطباعة بالحروف المصفوفة في منتصف القرن الخامس عشر، فأزال العقبات في سبيل انتشار العلم وتوصيله إلى عامة الشعب.

وكان الكتاب المقدس أول كتاب طبع بهذه الطريقة في سنة ١٤٥٥م، وبذلك لم يعد مخطوطاً محجبا بالأسرار في حوزة رجل الدين الذي يتولى وحده التفسير، بل أصبح كتابا من الكتب المتداولة في كثير من البيوت، التي كان ربها وأولاده يعرفون اللغة اللاتينية. فأخذت أسر بأجمعها تقرأ الكتاب المقدس ـ وكان ذلك مخالفا لقوانين الكنيسة – فتبين للناس أن

القساوسة كانوا يقصون عليهم أشياء كثيرة تختلف عما هو موجود في النص الأصلى! فأثار ذلك في نفوسهم الشك في رجال الدين، والحملة عليهم. في ذلك الحين كانت الظروف تتجمع داخل الكنيسة وتدفع للثورة عليها. وتنقسم هذه الظروف إلى قسمين: القسم الأول ويتصل بفساد الكنيسة، والقسم الثاني ويتصل بمحاولات الإصلاح الفاشلة. وفيما يختص بفساد الكنيسة، ففي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان عدد كبير من رجال الكنيسة، وعلى رأسهم البابا يعيشون عيشة الترف والمجون، وتحولت الولايات الباباوية إلى دول علمانية من الناحية الفعلية، استخدم فيها البابا كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتحقيق أغراضه السياسية، ومن هذه الوسائل التآمر والغدر، والاغتيال بالسم، والحروب.

وفي الفترة التي سبقت حركة «مارتن لوثر»، جلس على كرسى البابوية اثنان من البابوات يعتبران بحق مسئولين عن تدهور سمعة البابوبة وانحدار مركزها، هما: اسكندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣م) ويوليوس الثاني (1503 - 1515م).

وبالنسبة لحياة إسكندر السادس، فقد كانت حياة مخزية، فقد كرس حياته لإشباع ملذاته وتحقيق أطماعه، وإغداق مراتب الشرف على أبنائه، وتنمية ثرواتهم. وكان قد أقام علاقة بإحدى السيدات المتزوجات Vanozza، وأنجب منها بفضل هذه الصلة غير الشريفة أبناءه الأربعة: دون جوان، وشيزار، وجوبى Jope، وابنته لوكريزيا Lucrezia. كما كان له أبناء آخرون من نساء أخريات. وقد أقام إبنه شيزار بورجيا Borgia قسيسا، ثم كاردينالا، فارتكب من الجرائم ما جعل روما ترتجف رعبا لاسمه، ولم يتورع عن قتل أخيه دون جوان عندما خشي أن يشاركه في سطوته ونفوذه. واستخدم البابا وابنه جميع الوسائل غير المشروعة لتحقيق أهدافهما، مثل الرشوة والاغتيال على أوسع نطاق، وسلاح الحرمان البابوى.

وأما البابا يوليوس الثاني، فلم يكن يقل في أطماعه الدنيوية عن اسكندر السادس، وإن سلك اليها طريقا مختلفا عن طريق آل بورجيا Borgia، هي طريق الحرب والسياسة. فقد وقف يوليوس الثاني Julius II موقف المحارب والسياسي، يقود الجيوش، ويقاتل الأعداء، ويدبر المكائد، وبعقد المحالفات، وذلك لإعادة تأسيس ممتلكات الكنيسة، حتى ليعتبر بحق مؤسس أملاك البابوية في القرن السادس عشر.

وقد كان من الطبيعي أن تتأثر ميول كبار رجال الكنيسة بميول البابوات، فانكبوا بدورهم على الدنيويات، وطرحوا العناية بالشئون الدينية والروحانية جانبا، وصار من المألوف أن ينظر أصحاب هذه المراكز الدينية إلى وظائفهم باعتبارها مصدر إيراد فحسب، وأصبحت كافة الوظائف الكنسية تباع غالبا عن طريق المساومات مع البابوات، وصارت هذه الوظائف، بفضل تحايل رجال الإكليروس، شبه وراثية ماداموا قادرين على دفع المال.

وقد ترتب على ذلك أن أهملت الواجبات الكنسية، وفقدت الكنيسة مكانتها العالية التي تبوأتها، واهتز الأساسي الروحي والأخلاقي الذي أقامت عليه نفوذها وهيمنتها في العصور الوسطى. ومن هنا بات المسيحيون في دول غرب أوروبا يدعون إلى إصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة فيها، وتطوير نظمها وتنظيم علاقاتها مع أرجاء العالم المسيحي. وقد أخذت هذه الدعوة تمر بعدة أدوار، وتتعرض لعدة تطورات، نقلتها من مجرد

الدعوة إلى إصلاح الكنيسة، إلى الدعوة إلى إصلاح العقيدة ذاتها! وهذه الدعوات جميعها، وهي التي تحولت إلى حركات، هي التي يطلق عليها في مجموعها: «حركة الإصلاح الديني».

2 - حركة الإصلاح الديني من الداخل:

أما الدعوة إلى إصلاح الكنيسة فيعبر عنها بالإصلاح من الداخل، أي من داخل الكنيسة ذاتها، فتقوم الكنيسة على أيدى رجالها بإزالة مفاسدها وتنظيم شئونها وإصلاح نفسها بنفسها. وكان قوام هذا الاتجاه عقد المجالس Councils أو «المجامع الكنسية» تباعا، وفي فترات متفاوتة نوعاً ما، ويطلق عليها «حركة المجامع الكنسية». وقد بدأت على يد رجال الدين الكاثوليك الذين عقدوا المجالس الدينية لإدخال الإصلاح اللازم للكنيسة من داخل الكنيسة، بل إن آخر هذه المجالس، وهو المجلس الديني الذي عقد في بال Basle في سنة 1431م، أراد أن يضع القرارات التي تصدرها المجالس الدينية فوق قرارات البابا، وأراد أن يحد من سلطة البابا ويمنع عنه بعض الأموال الكنسية. ولكن اعتلاء البابا نقولا الخامس في ١٤٤٧م كرسى البابوية قضى على هذه المحاولة، الأمر الذي أدى إلى فشل حركة المجالس الدينية في إدخال الإصلاح المطلوب من داخل الكنيسة.

وقد كان من كبار المصلحين الدينيين الذين أرادوا أن تقوم الكنيسة بإصلاح نفسها، يوحنا رويخلين John Reuchlin (١٤٥٥ - ١٥٢٢م)، وديزيديريوس إيرازموس Desiderius Erasmus (١٤٦٧ -١٥٣٦م).

أما يوحنا رويخلين، فهو «إنساني» ينتمي للحركة الإنسانية في عصر النهضة، ومتخصص في الدراسات العبرية، وكان طيلة قسم كبير من حياته المركز الحقيقي لكل الدراسات الإغريقية والعبرية في ألمانيا. وقد استعان باللغة العبرية في تفسير العهد القديم من الكتاب المقدس The Old Testament وأثار بكتاباته ضجة من الجدل، وكشف هو وتلاميذه وأتباعه عن مساوئ الكنيسة ، ونقدوا البدع والخرافات التي إنتشرت فيها، مما أدى في النهاية إلى تكوين قسم من الرأى العام معاد لكنيسة روما. ولكنه مع ذلك لم يستهدف إطلاقا الخروج على الكنيسة أو الانفصال عنها، وإنما كان هدفه أن تقوم الكنيسة بإصلاح نفسها.

أما ديزيديريوس إيرازموس Desiderius Erasmus فهو «إنساني، أيضا، وهو الزعيم المعترف به لحركة الاستنارة في أوروبا حتى أيام فولتير (اسمه الأصلى جيرهارد جيرهاردسون) وقد نادى بإصلاح عيوب الكنيسة، وأسهم في إثارة الرأي العام ضد البابوية والكنيسة، وإن لم يستهدف هو ايضا الانفصال عن الكنيسة أو الانشقاق عنها.

وتتمثل أهميته، من ناحية الإصلاح الديني، في ترجمته إلى اللغة اللاتينية القسم اليوناني من الكتاب المقدس، أي الإنجيل أو العهد الأعظم، وأرفق مع هذه الترجمة النص اليوناني القديم الأصلي، فكشف بهذه الترجمة الصحيحة ما في الترجمة اللاتينية القديمة للكتاب المقدس، والتي راجعها القديس جيروم في القرن الرابع، واعتمدتها الكنيسة الكاثولوكية The Vulgate ، من أخطاء في مواضعها. وبذلك لم تعد نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية منذ القرن الرابع شيئا مقدسا.

وقد كان تأثير ذلك على الفكر المسيحي عظيما. فإذا كان في وسع الرجل العلماني أن ينفذ من وراء اللغة اللاتينية، وهي اللغة الرسمية للإكليروس، إلى اللغتين الأصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس، وهما: العبرية التي كتب بها العهد القديم أو التوراة، واليونانية التي كتب بها العهد الجديد أو الإنجيل. وإذا كانت نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية والمعتمدة من الكنيسة الكاثولوكية، قد فقدت قداستها، فقد كان لابد أن تظهر فكرة أن الإنسان يستطيع الإتصال بربه مباشرة دون وساطة القسس!

ومع فشل الكنيسة في إصلاح نفسها بنفسها، وعدم استجابتها لرغبات المصلحين، انتقلت حركة الإصلاح الديني إلى مرحلتها الثانية، وهي مرحلة فرض الإصلاح من الخارج. وهذه المرحلة لا تقتصر فقط على إصلاح الكنيسة، بل واصلاح العقيدة ذاتها! وكان على رأس هذه الحركة: مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) وأولريك زونجلي Ulirich Zwingli، ويوحنا كلفن.John Calvin

3 ـ حركة الإصلاح الديني من الخارج :

(أ) مارتن لوثر وحركة الإصلاح الديني في ألمانيا :

ولد مارتن لوثر عام ١٤٨٣م في قرية أيزلبن Eisleben من أعمال سكسونيا، لأب عمال التعدين، وعاش في بيئة ريفية شاقة. وفي سن الثامنة عشرة التحق بجامعة ايرفورت Erfurt وكانت أشهر جامعات ألمانيا، لتلقى علم القانون. فبدأ بدراسته في كلية الفلسفة تمهيداً للالتحاق بكلية الحقوق، وتال إجازته الأولى عام ١٥٠٢م، ثم إجازة الأستاذية في عام ١٥٠٥م، ولكن لم يكمل دراسته بكلية الحقوق، وإنما انخرط في سلك الرهبنة في أحد أديرة القديس أوغسطين، وانكب على الصلاة والتقشف والزهد وتعذيب النفس أملا في التخلص من خطاياه، والتوصل إلى رحمة الله. ثم ترك الدير وقام بتدريس الفلسفة في جامعة وتنبرج Wittenburg الجديدة سنة ١٥٠٨م، ثم صار يدرس بها اللاهوت.

وفي سنة ١٥١٠م زار روما، وهناك شاهد بنفسه مفاسد البابوية، فعظم قلقه، وتركت هذه الزيارة في نفسه جرحا داميا. وفي خلال ذلك وحتى سنة ١٥١٥م، كان قد استطاع الاهتداء إلى العقيدة التي ساعدته على الوصول إلى الهدوء النفسي الذي ينشده، وتتلخص هذه العقيدة في أن الإيمان المطلق برحمة الله، الذي يضمن النجاة من عقاب الله. فإن الإنسان إذا ماكان مؤمنا، فإنه يستطيع الخلاص بالرغم مما استقر في نفسه من شرور، أما الطقوس، كالحج، والاحتفالات الدينية، والهمس في المسابح، وإيقاد الشموع، وعبادة المخلفات الدينية، فلا جدوى منها.

وأما الغرض من الصلاة والعبادة بأنواعها فليس التخلص من الخطايا، ولكن إسداء الحمد والشكر لله. وقد اهتدى لوثر إلى هذه العقيدة من دراسته للكتاب المقدس، ورسالة الرسول بولس إلى مسيحيى روما خصوصا. وتعرف هذه العقيدة باسم عقيدة «التبرير بالإيمان» Justification by Faith ولم تلبث الظروف أن تهيأت لنشر هذه العقيدة حين دخلت مسأله صكوك الغفران في مرحلة جديدة لا تحتمل، على يد راهب دومينيكانى Dominican ، هو يوحنا تتزل John Tetzel.

وصكوك الغفران Indulgence، كما عرفه توماس أكويناسAcquinas وهو من كبار مفكري الكنيسة في العصور الوسطى، يقوم أساسا على قواعد ثلاث: الندم Repentance، والاعتراف Confession والتكفير Justification وهو الذي يكون بالصلاة والصوم والزكاة. ومعنى ذلك أن الغفران لايتم إلا إذا مر بالمراحل الثلاث السابقة. على أن البابوات صاروا يستعيضون عن التكفير (وهو الصلاة والصوم والزكاة) بعمل آخر، كالاشتراك في الحروب الصليبية، أو الحج إلى روما عند أول كل مائة سنة جديدة، فيمنح البابا الغفران الكامل للمحارب أو الحاج إلى روما، دون حاجة إلى استيفاء الركنين الأولين للغفران، وهما: الندم والاعتراف. ثم صار الغفران يمنح إلى كل فرد يجهز محاربا من الصليبيين، ثم أخذت صكوك الغفران تصدر لأغراض أخرى متنوعة، كبناء الكاتدرائيات أولا، ثم لغايات دنيوية، كإنشاء الطرق، وإقامة الجسور، وغير ذلك من الأعمال العامة المفيدة.

وكان الغفران عبارة عن صك من الورق، يبذل فيه الوعد للمذنب ـ لقاء قدر من المال ـ بإنقاص المدة التي سوف يمكثها في «المطهر». وكان الباباوات لهم سلطة غفران الذنوب بناء على السلطة التي استمدها تلاميذ السيد المسيح وخلفاؤهم من قول المسيح لتلاميذه: «من غفرتم خطاياه نغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت». ولم تلبث صكوك الغفران (التعويض عن التكفير) أن أصبحت عملية تجارية، يكفي فيها أن يدفع الإنسان قدرا من المال ليحصل على شهادة أو صك بالغفران. في ذلك الحين كان هناك نوع من الغفرانات يسمى بالغفران الاحتفالي (أو اليوبيلي)، وقد بدأ في عام 1300 على يد البابا بونيفاس الثامن Boniface للاحتفال ببداية القرن الجديد (القرن الرابع عشر)، ويعطى لكل من يقوم بالحج الى روما، وهو غفران شامل لكل الذنوب.

وقد أغرى نجاح هذا الغفران أحد الباباوات بعد قرن من الزمان على أن يصدر غفرانات احتفالية بمناسبة مضى ربع قرن، ولم تلبث هذه اليوبيلات أن انتشرت أيام لوثر، حتى رأى البابوات أن يعهدوا بترتيبها إلى البنوك والمصارف في ألمانيا، خصوصا بيت فوجرز Fuggers في أوجزبرج Augsburg، الذين صاروا يعملون بمثابة وكلاء لإبرام العقود، وتقديم القروض وترتيب اليوبيلات، وتحصيل الأموال – كما حدث عندما قام هؤلاء الممولون بالمفاوضة بين «ألبرخت» Albrecht أمير براندنبرج Brandenburg ورئيس أساقفة ماينز Mainz ومجدبرج Magdeburg وبين البابا في روما، على أن يقدموا قرضا لتنفيذ التسوية، وعلى أن يصدر البابا ليو العاشر Leo غفرانات شاملة لمدة ثمانية أعوام، تباع وتشترى في أراضي ألبرخت، على أن يستولى «ألبرخت» على نصف المتحصل من الغفرانات، وأما النصف الآخر فيرصد رسميا لبناء كنيسة القديس بطرس في روما.

وبطبيعة الحال فلم يلبث أصحاب هذه التسوية أن أخذوا يقومون بالدعاية لصكوك الغفران، وينشرون أعوانهم في جميع القرى. وقد لجأ البائعون من الرهبان الدومينيكان، في سبيل ترويج بضاعتهم، واستثارة حماس الناس إلى شراء هذه الصكوك ـ أو «الرسائل البابوية» كما كانت تسمى ـ إلى أساليب مبتذلة، حتى إن يوحنا تنزيل John Tetzel، رئيس هذه الجماعة، الذي فوضه ألبرخت لبيع الصكوك لحسابه، إندفع في خطابه مرة، وبلغت به الجرأة أن قال ـ وهو يلوح بالصكوك في الهواء ـ «إن الرجل إذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها،

فهذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران»! بل إن البابا ليو العاشر قرر أن يسرى مبدأ الغفران على الأموات مثل سريانه على الأحياء!

ولما كان تداول صكوك الغفران على هذا النحو يهدم الغفران الحقيقي بأركانه الثلاثة المعروفة، ولما كان لوثر يعتقد أن النجاة من العقاب لاتأتى إلا عن طريق الإيمان بالله وبرحمته فقط، فقد استنكر هذا العمل، وانتهز فرصة اجتماع الناس في كنيسة وتنبرج يوم أول نوفمبر ١٥١٧م للاحتفال بعيد الشهداء All Saint Day ، فعلق على باب الكنيسة احتجاجا طويلا، يتألف من 95 حجة ضد صكوك الغفران. وفي هذا الاجتماع لم يحمل فقط على عملية بيع صكوك الغفران، بل حمل كذلك على الغفران نفسه، كما كان معمولا في الكنيسة الكاثوليكية منذ قرون ـ أي أن لوثر هاجم الغفران بقواعده الثلاثة التي أشرنا إليها. ثم أخذ يبسط عقيدته في التبرير بالإيمان، وهي أن الغفران مربوط فقط برحمة الله.

ـ وتتلخص الحجج التي تضمنها احتجاجه في الآتي:

1 ـ أن الغفران لايعدو أن يكون الإعتاق من العقوبات الكنسية وليس الإعتاق مما فرضه الله أن صك الغفران لايمكن أن يمحو ذنبا، لأن البابا لايستطيع ذلك. ـ أن صك الغفران، بالتالي، لايمكن أن يخلص الإنسان من العقوبة، وإنما الله وحده الذي يحتفظ بهذا الحق بين يديه. وأن صك الغفران لا يمكن أن يفعل شيئا للروح في «المطهر»، حيث أنه لايسرى إلا على ما توقعه الكنيسة من عقوبة، وهي عقوبة متعلقة بالأحياء، وتسقط بالموت. وكل ما يستطيع أن يفعله البابا للروح في «المطهر» هو الصلاة فقط. أن طريق المغفرة والصفح من الله، هو التوبة الصادقة وحدها.

ولم يمض أسبوعان على هذا الحادث، حتى كانت قد ذاعت أنباء هذه الحجج الخمس والتسعين، وترجمت من اللاتينية إلى الألمانية. ولم يمض شهران حتى كانت أوروبا بأسرها تناقش هذه الحجج التي وضعها الراهب السكسوني، وكان لزاما على كل فرد أن ينحاز إما إلى جانب لوثر وإما إلى الطرف الآخر.

على أن لوثر مضى خطوة أخرى. ففي مناقشة مع يوحنا تنزل ومع غيره من علماء اللاهوت، وأقدرهم يوحنا إيك John Eck أستاذ اللاهوت بجامعة انجوشتات Ingolstadt، نقد لوثر نظام الكنيسة وسلطتها العليا، بل وتعاليمها، وصرح بأن الكتاب المقدس هو وحده القانون الذي يجب الرجوع إليه في تفسير العقائد. كما وجه في سنة 1519م الدعوة إلى الأمراء وإلى الفرسان في ألمانيا لتزعم الاصلاح على الأسس الآتية:

١ ـ خضوع رجال الدين للسلطة المدنية.

٢ ـ ليس من حق البابا وحده أن يحتكر تفسير الكتاب المقدس.

3 ـ ضرورة إنقاص عدد الأديرة.

4 ـ عدم الحج إلى روما.

٥ ـ ضرورة زواج القسس.

6 ـ الطلاق أمر شرعي.

7 ـ ليس في استطاعة القسس، عند تناول القربان، أن يحولوا الخبز والنبيذ في العشاء الرباني الأخير إلى جسد المسيح ودمه.

وعلى هذا النحو هاجم لوثر الكنيسة الكاثوليكية في صحيح سلطاتها وعقيدتها. ولم يلبث لوثر أن كتب إلى البابا رسالة بعنوان: «فيما يمس الحرية المسيحية»، قال له فيها: «إنك لا تستطيع أن تنكر أن مايسمى بهيئة الكهنوت الرومانية هي أفسد من بابل وسدوم! ولقد أظهرت احتقارى حقا، وانتابني الغضب لأن الشعب المسيحي يخدع تحت ستار اسمك واسم الكنيسة المسيحية. لهذا قاومت، وسأظل أقاوم، ما وجد في عرق ينبض بروح الإيمان».

وإزاء ذلك أصدر البابا ليو العاشر قراره بحرمان لوثر، وأجاب لوثر على ذلك بحرق القرار علنا في ساحة وتنبرج في 10 ديسمبر ١٥٢٠م، وبذلك انقطعت كل صلة تربطه بالكنيسة، وأصبح السلام بينه وبين البابا مستحيلا.

وعندئذ طلب البابا من الإمبراطور شارل الخامس أن يقتص من لوثر، وينفذ قرار الحرمان ضده، فعقد الإمبراطور مجمعا (اجتماع عام) في ورمز Diet of Worms في يناير ١٥٢١ لمناقشة لوثر في آرائه. فذهب لوثر إلى المجمع، بعد أن غدا بطل الألمان القومي، ورفض أن يسحب كلمة واحدة مما قال أو كتب،.وعندئذ أصدر المجمع قرارا اعتبر فيه لوثر خارجا على السلطة القائمة، وطرده خارج القانون، وإهدار دمه. وحرم على جميع الألمان إيواءه أوتزويده بالطعام والشراب، كما حرم عليهم قراءة كلمة واحدة مما كتبه.

على أن فردريك، ناخب سكسونيا، ومؤسس جامعة وتنبرح، تقدم لحماية لوثر، فلجأ لوثر إلى قلعة فارتبرح Wartburg حيث أقام في هذا المخبأ مدة عام تقريبا، ترجم خلاله الإنجيل إلى الألمانية، مما كان له أثر كبير في إحياء الأدب الألماني، وجعل اطلاع الناس على كتابهم المقدس أمرا سهلا، بعد أن كان الدين وتفسيره وقفاً فقط على رجال الدين وحدهم.

وفي أثناء عزلة لوثر اتصل به أقرب أخصائه، وهو فيليب ميلانكتون Philip Melanchthon ، المتعمق في الدراسات الإغريقية، والذي يرجع إليه الفضل في وضع فلسفة واضحة للإصلاح اللوثري. ففي ديسمبر ١٥٢١م أمد فيليب ميلانكتون المذهب الجديد بأول كتاب ظهر في الكنيسة الكاثوليكية منذ قرون، حاويا لنظام مبنى على الإنجيل وحده، وهو كتاب «كلام معاد» Loci Communes.

وبينما كان لوثر مختبئا في قلعة فارتبورج، أخذت حركة الإصلاح الديني في الانتشار في ألمانيا، وفي الوقت نفسه أخذ بعض المتحمسين يتطرفون في دعوتهم، ويشتطون في تأييد حركته الإصلاحية. كما رأى البعض في الحركة الفرصة للانقضاض على أراضي الكنيسة وهدم النظام الاجتماعي. على هذا النحو ظهرت حركات ثورية ثلاث هي:

(أ) حركة الأنابابتيين Anabaptists (الذين يريدون إعادة التعميد) :

وقد ظهرت هذه الحركة في تزفيكاو Zwikau في سكسونيا ١٥٢١م، على يد جماعة متطرفة من أنصار لوثر، على رأسهم توماس مونزر Munzer، رأت أن تعميد الأطفال (تغطيسهم ثلاث مرات في الماء على اسم الثالوت المقدس: الآب والابن والروح القدس) من أجل صلاحهم، لا يتفق مع تعاليم الإنجيل، حيث يجب أن تتوافر في المعمودية أركان الحياة الدينية الصحيحة، من توبة وندم وإيمان، وهو ما لايتوافر في الأطفال، ومن ثم فإن سر المعمودية لايسمح الا للبالغين الراشدين الذين اعتنقوا المسيحية فقط.

على أنه عندما تطرف هؤلاء في دعوتهم، وقعت اضطرابات واعتداءات جعلت لوثر يشعر بأن دعوة الإصلاح الديني في خطر، فخرج من مخبئه ليدعو المتطرفين لالتزام الهدوء والحكمة.

(بـ) حركة الفرسان:

رأينا كيف كانت هذه الطبقة ساخطة ومتحفزة للثورة ضد النظام الاجتماعي والسياسي الذي لم يعد يوفر لها امتيازاتها السابقة، فلما ظهرت دعوة لوثر، وتصدعت هيبة الكنيسة، رأى هؤلاء في تلك الدعوة الفرصة لانتزاع أراضي الكنيسة، واتخذوا من أقوال لوثر ذريعة لمهاجمة أملاك الأسقفيات الكبرى. (كان لوثر يريد تجريد الكنيسة من أملاكها لارغامها على استعادة بساطتها الأولى) كما أراد الفرسان هدم سيطرة النبلاء الذين اعتبروهم أعداء لهم.

وعلى هذا النحو فحين قامت هذه الحركة في سوابيا وفرانكونيا بقيادة فرانزفون سيكينجن Franz Von Sickingen وصديقه ألريك فون هتن Von Hutten، وأخذوا في مهاجمة رجال الكنيسة ورؤسائهم من الأساقفة لانتزاع أراضي الكنيسة. واجههم الأمراء بالقوة المسلحة، فقتل فون سيكنجن، وهرب فون هتن إلى سويسرا سنة ١٥٢٣م، حيث مات بها فقيرا.

(ج) ثورة الفلاحين

قامت هذه الثورة في التيرول وأوستريا وفرانكونيا وسوابيا، وهي عبارة عن سلسلة من الثورات التي قام بها الفلاحون فيما بين سنتى ١٥٢٤ و ١٥٢٥م، وكان قد سبقها ثورات أخرى قبل ظهور الحركة اللوثرية، ولكن هذه الثورات الأخيرة بالذات تميزت بأنها أشد عنفا وأكبر خطرا.

وكان الفلاحون قد استمالتهم دعوة لوثر إلى الحرية والإنسانية والإخاء الجرماني، فاعتنقوا هذه الآراء، وأعجبتهم مهاجمة لوثر لرجال الكنيسة الذين كانوا يشكون منهم مر الشكوى، بسبب إسرافهم في فرض الضرائب والرسوم تحت مختلف الأسماء والفئات. ويلاحظ أن لوثر كان يفاخر بأنه ينحدر من أبوين اشتغلا بالفلاحة، وكان يدرك المظالم التي تنهال عليهم. على أن لوثر امتنع عن تأييدهم ، كما تحالف مع النبلاء ضدهم. وفي الوقت نفسه لم تجتذب حركتهم تأييد الفلاحين الذين كرهوا منهم الإرهاق الذي ألحقوه بهم.

وعلى ذلك، فعلى الرغم من أن بعض المؤرخين يرون أن الفلاحين الألمان لم يكونوا في وضع اقتصادي واجتماعي أسوأ من وضع غيرهم من الفلاحين في دول غرب أوروبا، حيث

كانوا قد بدعوا في تحرير أنفسهم من حالة القنية، وكان الرخاء المادي قد بدأ طريقه إليهم، فإن دعوة لوثر أحدثت فيهم من الأثر ما أحدثته الأفكار الحرة التي أشعلت الثورة الفرنسية في استثارة الفلاحين إلى الثورة.

وقد بدأت ثورة الفلاحين في دوقية بادن متخذة طابع الاحتجاج على الاسراف في فرض نظام السخرة، ثم انتشرت في الجنوب الغربي من ألمانيا، وفي الحوض الأعلى لنهر الراين، وحوض الدانوب الأعلى، ثم امتدت شرقا في إقليم التيرول وسالزبورح وكارينثيا Carinthia في النمسا، ثم اتجهت صوب الشمال في أراضي سكسونيا مسقط رأس لوثر.

وقد وضع الفلاحون بيانا بمطالبهم في مارس ١٥٢٥م، طالبوا فيه بإلغاء رق الأرض، وتحديد القيم الإيجارية للأراضي تحديدا عادلا، وقصر ضريبة العشور على الحبوب فقط، وتحديد الخدمات الإقطاعية التي يؤديها الفلاحون للأمراء الإقطاعيين، وتقرير حق صيد الأسماك في الأنهار والقنوات التي يعملون في فلاحتها، وحق صيد الحيوانات في الغابات، ومنح كل جماعة الحق في اختيار وتعيين القسس في الكنائس، والأساقفة في الأبرشيات. وقد طالب الفلاحون بأن تنظر مطالبهم في ضوء الكتاب المقدس، مطالبين بإبراز الدليل من الإنجيل على أنهم أرقاء! وقالوا: «لن نكون بعد اليوم عبيدا، لأن المسيح جعلنا أحراراً».

ولم تلبث هذه الحركة أن اتخذت طابعا شيوعياً على يد توماس مونزر Munzer، حاكم «تزفيكاو» وزعيم الأنابابتيين، والذي نصب نفسه زعيما للفلاحين منذ أقام في إحدى مدن ألمانيا، وهي مدينة مولهاوسن Mulhausen مجتمعا شيوعيا يقوم على إلغاء الملكية الفردية، والمساواة المطلقة بين الأفراد وشيوعية الملك، ودعا إلى إقامة مجتمع مسيحي جديد يقوم على أساس المساواة المطلقة وشيوعية الملكية، وهو ما يقتضى التخلص من الأمراء ورجال الدين على بكرة أبيهم.

مارتن لوثر وثورة الفلاحين :

وقد تمكنت الثورة الفلاحية من الحصول على انتصارات ساحقة في مراحلها الأولى، فسقطت مدن مهمة في أيدي الثوار. ولكن لوثر لم يلبث أن تنكر للفلاحين، رغم معرفته ما يعانونه من ظلم، وما عليه مطالبهم من عدل، فقد خرج من مخبئه يؤلب النبلاء على الفلاحين، ويدعوهم لمقاومة الثورة بالقوة، ووصف الفلاحين بأنهم «الفلاحون المخربون الذين يسفكون الدماء»، ولم يستطع أن يرتفع من مستوى الإصلاح الديني المحدود إلى مستوى الإصلاح الاجتماعى العريض، ولم يكترث إلا بشئ واحد، وهو أن ثورة الفلاحين تهدد مذهبه الجديد بالخطر في بداية انتشاره.

وقد ترتب على موقفه أن اجتمعت قوة النبلاء والفرسان ضد ثورة الفلاحين. ثم انقلب ميزان الثورة ضد الفلاحين حين تفرغ الإمبراطور شارل الخامس لمحاربتهم، بعد أن أنزل الهزيمة بملك فرنسا فرنسوا الأول في معركة بافيا Pavia في فبراير ١٥٢٥م (الحروب الإيطالية)، فعادت قواته من شبه الجزيرة الإيطالية إلى ألمانيا لضرب الثوار. ولم يكن في وسع الفلاحين تشكيل فرق عسكرية يمكنها مواجهة قوات الإمبراطور، فتمكنت مدفعية هذه القوات

من حصد الثوار، وهزموا هزيمة ساحقة في موقعة فرانكينهاوسن Frankenhausen في مايو ١٥٢٥م، وأعدم توماس مونزر مع غيره من كبار قادة الثورة.

ولقد كانت الطريقة التي واجه بها لوثر حركة الفلاحين، وفشله في اقتراح أسس للتوفيق والمصالحة، وتشجيعه إجراءات القمع الوحشية، نقطة سوداء في تاريخ لوثر واللوثرية. وقد كانت أثارها فادحة على الثوار، فقد تركت الفلاحين الألمان أكثر عجزا وهوانا من أية طبقة اجتماعية أخرى في وسط أوروبا أو غربها، كما أن انحطاط طبقة الفلاحين الألمان قد أدى إلى نقص فاحش في الطاقات الحيوية للحركة اللوثرية، فمنذ ذلك الوقت فقدت الحركة اللوثرية شعبيتها، وفقدت الفرصة لأن تكون حركة قومية بالمعنى المعروف، واضطر لوثر لأن يسقط من حسابه هذه القوة الجماهيرية الكبيرة، وهي قوة الفلاحين، وأن يعتمد على الأمراء والحكومات الألمانية.

على كل حال، فلم يلبث لوثر بعد القضاء على ثورة الفلاحين أن أخذ يتفرغ لبناء صرح كنيسته الجديدة ومذهبه الجديد، فأعلن إلغاء الديرية والرهبنة، وتزوج من الراهبة كاترين فون بورا Von Bora في سنة ١٥٢٥م، وراح يشرع في وضع أسس العقيدة.

وعندئذ طلب الأمراء الكاثوليك من الإمبراطور شارل الخامس التدخل في الأمر، على أنه كان من سوء حظ الكنيسة الكاثوليكية عموما أن الإمبراطور لم يكن متفرغا لهذه المشكلة، ذلك أن اللوثرية انتشرت في ألمانيا في وقت هدد فيه الأتراك العثمانيون أملاك الإمبراطورية في النمسا والمجر، وفي الوقت نفسه لم تكن علاقات شارل الخامس بالبابا علاقات تحالف ثابتة في أثناء نضاله مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، فكان البابا ينحاز إلى الإمبراطور تارة، وإلى فرنسوا الأول تارة أخرى. وقد أثرت هذه الأسباب على معالجة شارل الخامس للحركة اللوثرية.

شارل الخامس والحركة اللوثرية :

مرت هذه المعالجة بعدة مراحل:

المرحلة الأولى : عندما عقد شارل الخامس في سبير Speier في يونيه ١٥٢٦م المجلس الإمبراطوري الأول للفصل في المسألة الدينية، والنظر في تنفيذ قرارات مجمع ورمز الصادرة ضد لوثر، وقد أصدر مجلس سبير هذا قرارا في غير مصلحة الكاثوليكية، إذ أعطى لكل حكومة أن تعيش وتحكم وتسلك المسلك الذي سوف تسأل عنه أمام الله فقط وأمام الإمبراطور. وبذلك أصبح لأنصار لوثر مركز معترف به.

ـ أما المرحلة الثانية : فبدأت عندما نهبت جيوش الإمبراطور روما واضطر البابا لقبول الصلح، فعقد شارل الخامس مجلساً إمبراطوريا ثانيا في سبير Speier في فبراير سنة ١٥٢٩م، تقرر فيه تنفيذ قرارات مجمع ورمز، وإلغاء الحرية التي أعطيت للأمراء في اختيار المذهب الذي يريدون. فأعلن اللوثريون احتجاجهم على هذه القرارات، وتحدوا سلطة الإمبراطور، وكان بسبب احتجاجهم هذا أن عرفوا باسم «المحتجين» (بروتستانت. (Protestants)

أما المرحلة الثالثة : فحدثت عندما حاول الإمبراطور أن يحسم النزاع بالطرق السلمية، فدعا البروتستانت للاجتماع مع الكاثوليك في مجلس عقد في أوجزبورج Augsburg في يونيه ١٥٣٠م. وفي هذا المجلس وضع فيليب ملانكتون مبادئ العقيدة اللوثرية فيما عرف باسم اعتراف أوجزيرج -Confession of Augs burg، ولكن المجلس رفض هذا الاعتراف، واعطى الإمبراطور البروتستنت مهلة للتخلي عن أرائهم حقنا للدماء، ولكن الأمراء البروتستنت أجابوا على هذا الانذار بتأليف اتحاد للدفاع عن مصالحهم، عرف باسم: «حلف شمالكالديك Schmalkaldic League في سنة 1531م.

ـ أما المرحلة الرابعة : فكانت عندما شكل الأمراء الكاثوليك حلفا ضد البروتستنت، عرف باسم : حلف نورمبرج -Nu remberg league سنة 1539م، فعقد الإمبراطور مجلسا في راتيزبون Ratisbon سنة ١٥٤١م لحل الخلاف سلميا، ولما فشل في تحقيق هدفه أعلنت الامارات الألمانية فارتبرج Wartburg بادن Baden وهيس Hesse وبراندنبرج Brandeburg انضمامها إلى المذهب اللوثري واحدة وراء الأخرى، فعقد البابا بول الثالث مجلسا دينيا في ترنت Trent لبحث الخلافات الدينية، ولكن الكاثوليك سيطروا على المجلس، كما رفض البروتستنت قبول الدعوة وحضور المجلس، وأخذ الإمبراطور يعد العدة للقضاء على الانقسام الديني الذي هدد ممتلكاته، بالقوة، ولكن مارتن لوثر مات فى ١٧ فبراير ١٥٤٦م، وانقسم البروتستنت بعد وفاته، فانحاز موريس دوق سكسونيا إلى جانب الامبراطور، فخسرت جيوش البروتستنت بذهابه قائدا مدربا، وحلت بها الهزيمة في موقعة موهلبرج -Muhl berg في ابريل ١٥٤٧م، ووقع قواد الجيش البروتستنتي في الأسر، وباتت ألمانيا بأسرها تحت رحمة الإمبراطور.

وفي مايو ١٥٤٨م دعا الامبراطور المجلس الإمبراطوري للاجتماع في أوجزبرح، وعرض عليه النظام الذي أراد فرضه على البروتستنت والكاثوليك، وينطوى في جوهره على التمسك بالعقيدة الكاثوليكية مع بعض التسامح لإرضاء البروتستنت في مسائل زواج القسس، وتناول القربان، والتبرير بالايمان. وقد سمى هذا النظام بالنظام المؤقت Interim. ولكنه اضطر إلى استخدام الجنود لتنفيذ النظام المؤقت في ألمانيا الجنوبية، في حين قاومت البروتستنتية بزعامة مدينة مجدبرج Magdeburg في ألمانيا الشمالية، واحتج موريس دوق سكسونيا على النظام المؤقت، وعاد إلى صفوف البروتستنت، فاكتسبوا بعودته قوة جديدة.

المرحلة الخامسة : وفيها سارت الحوادث لصالح البروتستنت، بسبب انشغال الامبراطور بمسألة الوراثة في أملاكه، وانضمام الأمراء البروتستنت إلى هنرى الثاني ملك فرنسا في معاهدتى شامبورد Chambord (١٥٥٢)، وعهد شارل الخامس إلى أخيه فردناند بالتوسط في عقد معاهدة باساو Passau في يوليو ١٥٥٢م، التي نصت على دعوة المجلس الإمبراطوري في بحر ، أشهر لتسوية جميع المسائل المختلف عليها نهائيا.

وفي فبراير ١٥٥٥م دعى للانعقاد في أوجزيرج Augsburg ذلك المجلس الإمبراطوري، وترأس جلساته فردناند، لتقرير الصلح مع الأمراء البروتستنت. ،وأهم شروطه:

1 ـ تقرير المبدأ الذي ظهر في مجلس سبير الأول ١٥٢٦م بأن لكل أمير الحق في اختيار المذهب الذي يريد سريانه في إمارته، وألزم الأفراد المعترضين بمغادرة الإمارة.

٢ – أبقى الصلح على أملاك الكنيسة التي أخذت منها قبل عام ١٥٥٢م في حوزة الذين أخذوها من رجال الدين أو العلمانيين، ونص على إرجاع أملاك الكنيسة التي أخذت منها بعد ١٥٥٢م.

وعلى الرغم من أن صلح أوجزبرج Treaty of Augsburg حفل بالسلبيات، وأخطرها أنه أعطى للأمراء حرية التصرف في أخطر المسائل شأنا وقتئذ، وهي المسألة الدينية، وحرم منها الأفراد وجمهور الناس، فإنه بقى أساسا صالحا للحياة السياسية والدينية في ألمانيا مدة تزيد على الخمسين عاما حتى قيام حروب الثلاثين سنة في بداية القرن التالي.

ه ـ الإصلاح الديني خارج ألمانيا :

أولًا: حركة أولريخ زونجلي:

وقد انتشر الإصلاح الديني في أوروبا الشمالية وفي ألمانيا الشمالية والجنوبية في حياة مارتن لوثر نفسه، ثم في إنجلترا التي توطدت دعائم الإصلاح الديني فيها على أسس لوثرية في جوهرها. كما انتشرت اللوثرية في الدنمارك والسويد.

ويرجع السبب في عدم ذيوع اللوثرية في كل أوروبا، إلى صعوبة فهم العقيدة اللوثرية، خصوصا فيما يتصل بتناول القربان، والتبرير بالإيمان. واعتماد لوثر على تعضيد الأمراء، مما جعل السواد الأعظم من الناس ينفضون من حوله. وعدم اهتمام لوثر بتجديد وتعريف العقيدة الجديدة، وعدم اهتمامه بنشرها في خارج ألمانيا.

والمهم هو أن النجاح الذي لقيه الإصلاح الذي نادى به لوثر بالطرق السلمية لم يلبث أن شجع على ظهور مصلحين آخرين، في طليعتهم أولريك زفينجلي (١٤٨٤ - ١٥٣١) Ulrich Zwingli الذي ظهر مذهبه في سويسرا وألمانيا الجنوبية، وجون كلفن John Calvin (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) الذي انتشر مذهبه في الجزء الباقي من أوروبا الوسطى والغربية، وخصوصا في فرنسا والأراضي المنخفضة.

وقد خالف زفنجلى آراء لوثر وآراء الكنيسة الكاثوليكية على السواء في مسألة القربان، حيث اعتبر سرا الشكر أو «الأفخاريستا» حفلة تذكارية محضة، واعتبر الكنيسة مؤسسة ديمقراطية لكل المسيحيين الذين يشتركون بواسطة هيئة معينة منهم في الفصل في كل المسائل المتعلقة بالكنيسة والتعيين في الوظائف الكنيسية وغيرها، على حين اعتبر لوثر أن أمير البلاد هو دائما الرئيس الأعلى للكنيسة. وقد قتل زفنجلي في الحرب التي دارت بين الكاثولوليك والبروتستانت في أكتوبر ١٥٣١م.

ثانيًا: حركة جون كلفن

أما جون كلفن John Calvin الفرنسي الأصل، فقد اتفق مع اللوثرية في الاعتماد على الكتاب المقدس وحده في جميع المسائل الدينية، والتبرير بالإيمان، وأن السيد المسيح وحده هو الذي يشفع لدى الله، ولكنه اختلف عن اللوثرية في مسألة الغفران، الذي اعتبره من الأمور

المقدرة منذ الأزل، ولاترتبط بأعمال الانسان، كما اعتبر القصاص أيضا من الأمور المقدرة. ويعرف هذا المذهب بمذهب القدرية Predestination .

كذلك اختلف كلفن عن لوثر في مسألة القربان، فقد اعتبر العشاء الرباني الأخير حفلة تذكارية، وزاد على هذا بأن قال إنها ضرورية لإسداء الحمد والشكر لله أيضا. ولم يعترف كلفن الابسرين فقط من أسرار الكنيسة السبعة ـ وهي: الشكر أو الافخاريستا، والمعمودية، والمسيحية المقدسة أو الميرون، والزيجة الكهنوت، ومسحة المرضى، والتسوية ـ وهذان السران هما: سر الشكر أو الأفخاريستا، وسر المعمودية.

وعلى الرغم من اقتناع كلفن بضرورة وجود «الحكومة العلمانية» (المدنية أو الزمنية)، اقتناعه بضرورة وجود «الحكومة الكنسية»، فإنه أباح الانقلاب والثورة ضد الحكومة الزمنية إذا أقدمت على شئ يعتبر مخالفا لكلمة الله. ومن هنا ثار أتباع كلفن ضد سلطان الحكومة الزمنية في فرنسا والأراضي المنخفضة. وقد أتيحت الفرصة لوضع تعاليم كلفن موضع التنفيذ في جنيف، ولكن الناس نفروا منها بسبب شدة وصرامة نظام الكنيسة التي أراد كلفن تأسيسها، وعنف التعاليم التي أراد تطبيقها فاضطر إلى مغادرة جنيف سنة ١٥٣٨م، ولكنه لم يلبث أن عاد في ١٥٤١م بسبب استدعاء شعبها له، وبقي في جنيف حتى مات بها فى ٢٧ مايو ١٥٦٤م.

وقد انتشرت الكنيسة الكالفينية في فرنسا والأراضي المنخفضة واسكندیناوه، وتعرض البروتستنت في فرنسا (الذين عرفوا بالهيجينوت) Huguenotsلاضطهادات كبيرة ومذابح، مثل مذبحة يوم بارثولوميو Saint Bartholomew's Day ، وأجبر ألوف منهم على الخروج من فرنسا إلى المنفى، ولم يسمح للهيجينوت بالحرية المدنية والدينية إلا في عام ١٧٨٩م على يد الثورة الفرنسية.

الفصل الثاني

أوروبا والثورة الفرنسية

أولًا: ظروف قيام الثورة.

ثانيًا: قيام الثورة.

ثالثًا:نتائج الثورة.

لم تكن الثورة الفرنسية حدثا هاما في تاريخ فرنسا فقط وإنما هي أحد أبرز أحداث القارة الأوروبية والعامل المتمدن في القرنين الأخريين، ذلك أنها كانت بالفعل نقطة تحول أساسية في تطور النظم السياسية والاجتامعية في أوروبا. فقد وضعت حداً للنظام المليك القديم القائم على الاستبداد والمستند للحق الإلهي في الحكم وفتحت الباب أمام نظم جديدة، ملكية كانت أو جمهورية تقوم على حرية الشعوب والمساواة بين أفرادها وتستمد سلطانها من إرادة المواطنين وتعمل تحت رقابتهم بشكل أو بآخر .فأوروبا كانت كلها تشكو ما شكت منه فرنسا الملوك يمارسون الحكم المطلق على شعوبهم، والطبقات الممتازة تهيمن على حريات البلاد في كل مكان، والكنيسة بإسم الدين، تتمتع بامتيازات لا حد لها وباعفاءات من الضرائب والواجبات تجاه الدولة، والحريات العامة لا وجود لها إلا في ضمائر الأحرار ومخيلاتهم، والشعوب لا سيطرة ولا سلطان لها على مقدراتها ومصائرها. فالثورة الفرنسية جاءت تعالج هذه العلل وتحاول أن تجد لها حلولا تصلح لفرنسا كام تصلح لغري فرنسا في حالات كثيرة. وقد جاءت أحداث القرن التاسع عشر تثبت كيف أن الثورة أصبحت بالنسبة لشعوب أوروبا المظلومة المسلوبة الحقوق، مدرسة ورائدة في مجال التحرر والإنعتاق فتأثرت بها بكثري من مبادئها وقيمها الجديدة لمعالجة الفساد من أوضاعها السياسية والاجتماعية.

أولًا: ظروف قيام الثورة الفرنسية

تعددت أسباب الثورة في فرنسا

أولًا: الاسباب السياسية

إن العوامل والأسباب الأساسية لإندلاع هذه الثورة كثرية ومتشابكة حتى ليصعب تعدادها وحصرها. ثم إن اكرثها يعود في جذوره الأصلية إلى ما قبل الثورة بكثري ورمبا عاد بعضها إلى أيام لويس الرابع عشر حني بدت فرنسا في أحسن حالاتها وفي أوج قوتها وسؤددها. ولعل بالإمكان أن نجمل هذه الأسباب مما يلي:

في القرن الثامن عشر وعشية الثورة كانت الملكية في فرنسا لا تزال تستند إلى الأسس والمفاهيم التي أقامها لويس الرابع عشر ووزيره ريشيليو، أي أنها قوية نافذة مطلقة السلطان حرة من كل قيد أو رقابة، فالملك كان لا يزال يتصرف اعتباراً من أنه كان يستمد سلطانه من الله وأنه ليس ملزماً بأن يقدم حساباً عن تصرفاته إلا للخالق عز وجل. ومن هنا كان يعتبر نفسه المصدر الأساسي لكل القوانني والتشريعات وبالتالي كان يرفض أن تشاركه أية هيئة شعبية حقه في التشريع كام في التنفيذ .فهو المرجع الأول والأخري في الدولة وكلمته دوما يجب أن تكون نافذة. فالإستبداد كان حقا من حقوقه المعترف بها في التقاليد السياسية الفرنسية، والحريات الشخصية والدينية والسياسية مل تكن معترفا بها في هذه التقاليد. وإذا وجدت في التقاليد الفرنسية القدمية حدود لسلطان الملك فإنها كانت، على الأقل، منذ أيام ريشيليو قد تحولت إلى أدوات شكلية لا فعالية لها .

منذ عصور قديمة كانت المحاكم العليا (برلمان) تمارس سلطة الرقابة على القوانين التي يصدرها العرش الفرنسي. فلهذه المحاكم الحق في أن تناقش القوانين الصادرة وأن تدرسها وتدرجها في سجلاتها الرسمية. وهي على كل حال لا تصبح نافذة المفعول إلا من تاريخ تسجيلها لدى هذه المحاكم وقد قصدت التقاليد الفرنسية من إنشاء هذه المحاكم إيجاد حامية للمواطنين من

إمكانية صدور قوانني ظالمة بحقهم. إلا أن هذه المحاكم قد حد ريشيليو من سلطانها لدرجة كبيرة لا تكون قادرة على مناقشة سلطان الملكية المطلق كام أراده هو.

ومنذ ذلك الوقت فقدت أهميتها وأصبحت غري قادرة إطلاقاً على مجابهة العرش ورفض تسجيل ما يرد إليها من تشريعات وقوانين، إلا أن المناقشات والدراسات التي كانت تسبق تسجيل القوانني كانت تساعد إلى حد كبري على كشف عورات الدولة ومساوىء نظمها وقوانينها. وقد أعطت هذه المناقشات التي كانت تجري عادة بصورة علنية نتائج ممتازة زمن لويس السادس عشر حني أخذ أعضاء هذه المحاكم وجلهم من البورجوازيني المثقفني يتصدون للقوانني الفرنسية ويناقشونها ويظهرون ما في طياتها من مساوىء ومظالم بالنسبة لعامة المواطنين من أبناء الطبقة الثالثة.

وكان يعاون الملك في الإشراف على شؤون فرنسا إدارة حكومية على درجة كبيرة من التخلف والرجعية يمكن اعتبارها إلى حد كبير إمتدادا للعصور الوسطى بما فيها من إمتيازات طبقية لم يعد لها في القرن الثامن عشر ما يبررها على الإطلاق. فالبلاد كانت مقسمة إلى وحدات إدارية تعتبر إلى حد كبير صورة للإقطاعات القديمة انتقل نفوذ سادتها إلى العرش وبقيت حدودها وصورها الجغرافية حتى عصر الثورة، ولم تكن هذه التقسيمات تراعي في أكثر الحالات الواقع الاقتصادي والجغرافي والاجتماعي للسكان.

وقبل الثورة الفرنسية، بخمسة عشر عاما إرتقى عرش البوربون لويس السادس عشر ـ وهو على كل لم يكن سيئاً لدرجة تجعله وحده يدفع أخطاء كل من سبقوه من الملوك الفرنسيين. لقد كان رجلا فاضلا متدينا ورعا حسن الخلق إلا أنه كان محدود الذكاء، مترددا، ضعيفاً بعض الشيء، بل أضعف من أن يقوم بأمور فرنسا في وقت اشتدت فيه أزماتها وتكاثرت. يضاف إلى ذلك أن ملكة الفرنسيين في ذلك الوقت ماري انطوانيت، ابنة ماريا تريزا امبراطورة النمسا، كانت أصلب عودا وأكثر طموحا وأقوى شخصية تحكمت به وسريته وفق إرادتها فدفع في كثير من الحالات من اخطائها وتصرفاتها خصوصاً وأنها بسبب أصلها النمساوي لم تكن محبوبة كثيرمن جماهير الفرنسيين.

ثم إن أعوانه أنفسهم والمقربين منه قد فتر ولاؤهم له في السنوات الأخيرة من حكمه وأخذ كل منهم يسعى وراء مصالحه الشخصية ومكاسبه الآنية مهام كانت نتيجة ذلك بالنسبة للعرش والنظام. حتى طبقة الأشراف مل تكن كلها في السنوات السابقة للثورة قد بقيت على ولائها للعرش والملك بل أن بعضا من أبنائها الذين حصلوا على قسط من العلم والثقافة أدركوا مدى فساد الأوضاع في فرنسا وآمنوا بضرورة التغيري الجذري من أي جهة.

كما كان لحروب الثورة الأمريكية ضد بريطانيا أثرها الفكري والسياسي في فرنسا، فقد أقدمت الحكومة الفرنسية على دخول الحرب في صف الأمريكيين وانتهت الحرب بنصر كبير على القوات البريطانية بفضل المساعدات العسكرية الفعالة التي قدمتها فرنسا للأمريكيين وكان الشعب الفرنسي معجبًا كل الإعجاب بمبادئ الثورة الأمريكية، ورحب كثيرًا بانتصار الديمقراطية في الجمهورية الجديدة التي نادى بها زعماء الثورة الأمريكية، وقد كان لنجاح الثورة الأمريكية أثره الفكرى والسياسي في تدعيم الشعارات التي نادى بها فيما بعد الثورة الفرنسية.

ثانيًا: الأسباب الاجتماعية.

ولعل أكثر ما كان يسيء لفرنسا أنها كانت لا تزال تحتفظ بنظام الطبقات البغيض وما يرافقه من امتيازات لفئة قليلة من الناس على حساب عامة المواطنين.

فالفرنسيون كانوا مقسمين إلى طبقات ثلاث تفصل بينها حدود وفواصل يصعب تخطيها

.الطبقة الأولى: الأشراف

ويقف هؤلاء في أعلى مراتب المجتمع الفرنسي يحيطون بالملك ويعيشون إلى جانبه يريدونه ويدافعون عن نظامه وبالمقابل يعيشون في ظل حاميته ويتمتعون بامتيازات كثيرة يعود بعضها في أصوله إلى عصر الإقطاع. فالأشراف أراض واسعة جدا في الأرياف يستغلونها بواسطة الفلاحين والإقنان. وقدرت مساحة هذه الأراضي قبل الثورة الفرنسية بقليل بخمس الأرض الفرنسية الصالحة للزراعة. وللأشراف وحدهم حق شغل المناصب العليا في الجيش والإدارة والقضاء والدبلوماسية. ولهم أيضاً على الفلاحين العاملين في أراضيهم حقوق كثيرة منها حق فرض ضرائب معينة، ولهم أن يجبروا الفلاح على طحن غلاله في مطحنة الشريف صاحب الأرض وأن يعصر زيته وخمره في معصرته. ولهم أيضاً حقوق للصيد في مزارع الفلاحين. ولهم في بعض الأحيان حق القضاء بين الفلاحين العاملين في أراضيهم. وللأشراف فوق ذلك إعفاءات كثيرة في مجالات الضرائب والإلتزامات المالية تجاه الدولة. هذه الحقوق والإمتيازات كان النبلاء يتوارثونها أبا عن جد منذ العصور الوسطى. إلا أنها في القرن الثامن عشر، ومع تغير الأوضاع الاقتصادية وبداية التصنيع وانتشار الأفكار الحرة الجديدة باتت تشكل عبئاً ثقيلاً على عاتق الفرنسيين.

الطبقة الثانية: رجال الدين

وكان هؤلاء أيضاً يشكلون طبقة ممتازة إلى جانب الأشراف، لهم نفوذ قوي طاغ تدعمه، من جهة، امتيازات تقليدية قدمية حصلوا عليها في العصور الوسطى، ووضع مالي ممتاز. فالأديرة والرهبانيات الكثيرة المنتشرة في جميع أنحاء فرنسا كانت تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية تبلغ تقريباً خمس مساحة فرنسا، يعمل فيها ألوف من الفلاحين في ظروف قاسية شديدة وكان للكنيسة مورد هام هو ضريبة العشور تجمعها سنوياً من الفرنسين.

وفوق هذه الامتيازات فإن الكنيسة كانت معفاة من أكرث الضرائب الحكومية. ومما كان يثري حفيظة الفرنسيين أن الكنيسة لم تكن دائماً تصرف هذه الأموال في الطريق المخصص لها أي من أجل صالح الجامعة المسيحية.

الطبقة الثالثة: أما عامة المواطنين فكانوا ينتظمون في طبقة واحدة هي طبقة العامة أو الطبقة الثالثة. وهؤلاء تحملوا أعباء الدولة كلها، ودفع الضرائب المتزايدة، وتقديم الجنود للحروب الكثيرة، وخدمة الكنيسة والأشراف. وبعبارة موجزة فإن الطبقة الثالثة كانت تلتزم بأعباء ضخمة تجاه الدولة والبلاد لا يقابلها إلا حقوق ضئيلة. فهي محرومة من أبسط حقوق الإنسان الطبيعية كحق الحرية والمساواة أمام القانون وحق اختيار النظام السياسي أو الاقتصادي الذي يوافق رغباته ومصالحه.

وقد تفردت فئة قليلة من أبناء **الطبقة الثالثة** بوضع مالي ممتاز جعل لها مكانة خاصة ودورا رئيسياً في إدارة شؤون البلاد الاقتصادية أطلق عليها اسم «البورجوازية». وتعود هذه الفئة إلى الفترة الأخيرة من عصور الإقطاع حني بدأت أقلية من الإقنان تتحرر تدريجياً من نفوذ السادة وتتملك أرضا تستغلها لصالحها أو تمارس عملا تجاريا أو صناعيا. ومما سهل مهمة هؤلاء وجعلهم مع الوقت يسيطرون على الصناعة والتجارة ترفع طبقة الأشراف والنبلاء عن ممارسة مثل هذه الأعمال. ثم إن اكتشاف أمريكا، وما تدفق على أثر ذلك من أموال وذهب إلى أوروبا، واتساع آفاق التجارة داخل أوروبا وخارجها، سهل على هؤلاء سبل الغنى والثروة، وظهرت بين أبنائهم وأحفادهم فئة من المثقفين المتعلمين برعوا في فنون الطب والهندسة والقانون والفلسفة. ولم يمض كبري وقت حتى غدت هذه الفئة المثقفة الناشطة مزاحمة جدية لأبناء الأشراف على المراكز الكبرى في الدولة والإدارة خصوصاً تلك التي تحتاج إلى العلم والاختصاص وهي أمور لم تكن لتتوفر كثيرا لدى أبناء النبلاء. وكان منهم في القرن الثامن عشر بصورة خاصة كتاب وعلماء وفلاسفة ساهموا في تنوير الجماهير وجعلها تدرك ما هي فيه من ظلامة ومالها من حقوق مهضومة.

ثالثًا: ازدهار الحركة الفكرية :

ساهم رجال الفكر في بلورة الفكر الرافض للأوضاع المتردية في فرنسا بشكل غير مباشر، إذ احتلت فرنسا المكانة الأولى في عالم الفكر في القرن التاسع عشر، فقاد فولتير ومنتسكيو وروسو الحركة الفكرية في أوربا، وإن تلاشت الفكرة القومية في أدب أوربا، فعلى الرغم من تعدد الحروب بين فرنسا وإنجلترا تكامل الأدب بين البلدين ولم يحرض على العداء، فاتسمت كتابات فولتير بالثورة على آراء الكنيسة وتصرفاتها وهاجم التعصب الديني لاسيما ضد البروتستانت، ورأى في الملكية المستبدة المستنيرة ممثلة في فردريك الأكبر مثالً يحتذى. وكان مونتسكيو باحثاً متعمقاً في المسألة الدستورية وكان معجباً بالدستور الإنجليزي وبخاصة في الفصل بين السلطات الثلاثة التنفيذية والتشريعية والقضائية وكذا مسألة خضوع الحكومة للرقابة، وقد استعان الأمريكان في صياغة دستور الولايات المتحدة بكتابه "روح القوانين". أما روسو فنشر آراءه عام في كتابه "العقد الاجتماعي" الذي أوضح فيه أن الحومة مدينة بوجودها للشعب واحتج على طغيان الحكومات في عصره ضد شعوبها، فمن حق الشعب دائماً أن يعدل أشكال الحكومة، ومع ذلك يرى أن الديمقراطية غير قابلة للتطبيق في الدول الصغرى، وأن الدكتاتورية خيار قد يكون ضرورياً أحياناً، فكثيراً ما ينتاب أفكاره الغموض، وهذا سر الاختلاف عليه إلى يومنا هذا.

رابعًا: الأسباب الاقتصادية

يمكن القول أن المشكلات الداخلية التي واجهت فرنسا، و التي شغلت عقول المفكرين في تلك الآونة كانت مشكلات مالية قبل كل شئ، ولذلك اعتبر معظم مؤرخي الثورة أن السبب المباشر لقيامها كان فساد الأحوال الاقتصادية، حيث بلغ هذا الفساد حدا أصبحت الحكومةً معه عاجزة عن الحصول على المال اللازم لمصروفاتها المتعددة. ولا غرابة في أن تكون الأسباب الإقتصادية هي التي دفعت فرنسا إلى الثورة ، إذ أن الإنسان إذا

تغاضى عن بعض المساوئ لبعض الوقت، فإنه لن يستطيع أن يتغاضى طويلاً عن آلام الجوع والفقر، وتأتي على رأس هذه المساوئ:

نظام الضرائب :

كانت طبقة صغار الملاّك - التي صارت بعد الثورة من أهم طبقات المجتمع الفرنسي - على النظام القائم وتشوقاً إلى تغييره ، فقد كانت واقعة تحت وطأة عبء هائل من الضرائب ، بينما أُعفي الأشراف ورجال الكنيسة من الضرائب ، وبقي المالك الصغير هو وحده المصدر الرئيسي لإيراد الدولة. وكان في مقدمة الضرائب التي ضج الشعب الفرنسي من وطأتها ما يلي:

١- **ضريبة العقار**: وكانت طبقة العامة تدفعها على ما تمتلك من حقول ومساكن .

٢ **ضريبة الملح**: حيث كانت الحكومة تحتكر الملح ، وتحدد له أسعارا على اختلاف الأقاليم يلزم كل فرد بشراء قدر معلوم من الملح كل عام.

٣- **ضريبة الرأس**: نشأت في نهاية القرن السابع عشر أثناء حروب لويس الرابع عشر، وفرضت كضريبة مؤقتة ، ولكنها بقيت حتى عام ١٧٩١ ،عندما ألغتها الثورة ، وكان يؤديها سائر أفراد الشعبُ ، ولكن في تقديرها كان الغرم يقع على عاتق عامة الشعب أيضا ، إذ تقدر وفقا لقيمة ضريبة العقار بالنسبة لهم. وكانت تقدر للنبلاء وفق تصريحاتهم الخاصة التي يقدمونها للحكومة.

4- **ضريبة الدخل**: هي نوع من الضرائب التي كانت تفرض على الجميع حسب دخل الفرد.

على الرغم من الثروة الزراعية الضخمة .

على الرغم من الثروة الزراعية الضخمة لفرنسا وترف طبقتها العليا إلا أنا حكومات النظام الملكي كانت عاجزة تماماً أمام توفير موارد طعام الشعب ، حيث أصبحت الطبقات الفقيرة وهي العريضة في فرنسا عرضة لفتك المجاعات وأهوالها ، فلقد كانت مشكلة الطعام من المشاكل الرئيسية في حياة الفرنسيين ، والذين لم يضمنوا على الدوام الحصول عليه نظـــرا إلى سوء النظم الزراعية وتقادم العهد عليها من جانب ، وفرض المكوس الجمركية الداخلية على الحنطة من جانب ، فكانت العواقب وخيمة كقيام الفتن الخطيرة للمطالبة بالخبز •

والحقيقة أن فرنسا في هذه الفترة كانت قد دخلت في أزمة مالية خطيرة ، فالحروب الكثيرة التي خاضتها فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر كانت قد استنفذت كثيراً من الأموال ، وكانت خزينة الدولة مثقلة بالديون ، وعجزت الضرائب وموارد الدولة عن مواجهة - المصروفات الضرورية وأصبحت المشكلة الرئيسية في هذا الوقت تدور حول كيفية سد العجز في الميزانية ، وذلك لأن فرض ضريبة جديدة على العامة لم يكن ممكناً ، كما أن موافقة الطبقات الممتازة على وجوب دفعها نصيبها من الضرائب كان مرفوضاً من قبل هذه الطبقة ، وقد حاول الملك لويس السادس عشر أن يتلمس سبيلا للإصلاح فعهد بوزارة المالية إلى رجل خبير ونزيه هو " تيرجو " وكان من قبل مراقباً عاماً للمالية والذي اقترح ضرورة تطبيق نظام ضريبى عادل

، وإسناد الوظائف إلى موظفين أمناء ، والعمل على الانتفاع من أموال الكنيسة ، ولما كانت مقترحاته تضر بمصالح النبلاء ورجال الدين عمل هؤلاء جميعا على التآمر ضده حتى تم عزله ، در وظلت المشكلة قائمة إلى أن انجه الملك إلى أحد رجال الاقتصاد واسمه " نكر " إلا أن حظه لم يكن أوفر من سلفه ، وعزل من منصبه في عام ١٧٨١ م وتكررت محـــاولات الإصلاح بعد ذلك عندما أسندت المالية إلى " كالون * * Calonne " في الوقت الذي اشتدت فيه الضائقة المالية ولاح شبح الإفلاس ، فشرع كالون يخطط للإصلاح ، فاقترح على الملك أن يدعو " مجلس الأعيان " لكي يعرض عليهم فرض ضرائب جديدة على جميع طبقات الشعب بلا استثناء إلا أن أعضاء ذلك المجلس وهم الذين يتمتعون بميزة الإعفاء من الضرائب رفضوا مناقشة هذه الضرائب.

وعلى أيه حال فإن الرغبة والإصلاح دفعت " كالون - اجـرا وأذكـي الـوزراء الفرنسيين الذين حاولوا الإصلاح إلى أن يطلع بنى وطنه على بعض الحقيقة ، فقد كتب يقول : إن فرنسا مملكة تتكون من ولايات وأقطار منفصلة ذات إدارات مختلطة متنوعة ، لا تعرف مقاطعاتها شيئاً عن بعضها بعضاً وحيث لا تحمل بعض جهاتها عبئا ما ، بينما العبء كله يقع على الجهات الأخرى ، وحيث أكبر الطبقات ثراء يفرض عليها أخف الضرائب ، وحيث الامتيازات تحول دون كل توازن ، وحيث يتعذر إقامة حكم ثابت دائم ووجود إدارة مشتركة ، فلا عجب إذا هي حفلت بالعيوب والمسارىء ومن المتعذر في حالتها الراهنة أن تحكم حكماً صالحاً.

ثانيًا: قيام الثورة :

اجتمعت جميع الظروف السابقة لتكون رأياً واحداً لدى الفرنسيين وهو ضرورة الثورة خاصة بعد استفحال الأزمة المالية وما اقدم عليه الوزير كالون من اصدار بيان له عن حالة البلاد .

(1) دعوة مجلس طبقات الأمة للانعقاد :

لقد دفعت كل الظروف السابقة الملك لويس السادس عشر إلى محاولة إنقاذ الموقف فاصدر في الخامس من يوليه من عام ١٧٨٨ م مرسوماً بدعوة مجلس طبقات الأمة إلى الانعقاد ، وتمت الانتخابات على أساس جديد ، وهو أن يكون للطبقة العامة عدد من النواب يبلغ ضعف نواب كل من طبقتي الأشراف ورجال الدين وقد كان مجلس الطبقات من قبا مجلساً إقطاعياً لم يجتمع منذ عام ١٦١٤ م ويتكون من ممثلى ثلاث فئات ، فتة رجال الدين وفتة الأشراف وفئة العامة ، وعندما يدعى المجلس إلى الانعقاد يجتمع أعضاء كل طبقة في قاعة منفصلة ويجرى التصويت على القرارات في كل قاعة على حدة ، ولذلك كانت الغلبة دائماً لرأى الطبقتين المميزتين مع أن عدد أعضاء الطبقة الثالثة أصبح في عهد لويس السادس عشر ضعف عدد أعضاء الطبقتين الأخريين •

والحقيقة أن الملك لويس السادس عشر لم يكن يأمل الشيء الكثير من هذا المجلس ولم يكن الوزير " نكر " يأمل في شيء سوى أن يقر المجلس المال اللازم لسد العجز في الميزانية ، لذلك أهملت الحكومة أمر هذه الدعوى ، ولم تضع الحكومة قبل انعقاد هذا المجلـس - للإصلاح

الدستوري ، أو تعد أي إرشادات لهدى مجلس قليل الخيرة كهذا المجلس المؤلف مـن ألف مائتي عضو خلال عمله ولم تقر الحكومة شيئاً في أمر معادلة عدد أعضاء الطبقة الثالثة (الطبقة العامة) مع عدد أعضاء طبقتي الأشراف ورجال الدين معاً ، ولم تقرر الحكومة أيضاً هل يجتمع أعضاء الطبقات الثلاث معاً أو يجتمع ممثلوا كل طبقة على حدة وعلى أية حـال فـإن الأمان الفرنسية في عام ١٧٨٩ م والتي رفعتها كل هيئة وناحية في فرنسا إلى الحكومة أو) نشرها كبار القوم خلال تلك الحقبة الدقيقة لم تكن تجنح إلى فكرة الجمهورية ، ولكنها كلفت تطالب فقط بأن الضرائب يجب أن تفرض من غير موافقة الشعب وأن تلغى ضريبة البيـوت والعقار الثابت ، وهما أمنيتان اجمع الناس على المطالبة بتحقيقهما وحتى العريضة التي كان قد كتبها قس شاب هو " تاللیران * * Tallwyrand " أسقف كنيسة مدينـة " اوتان " كانت تدعو الى ملكية دستورية.

ب. تكوين الجمعية الوطنية

عند اجتماع مجلس طبقات الأمة في مايو ١٧٨٩م فى " فرساى" قاطعت الطبقة الثالثة نظام الاجتماع في ثلاث غرف منفصلة، وأصر مندوبوها على أن يكون اجتماع المجلس فى قاعدة واحدة وأن يكون نظام التصويت بالاقتراع الفردى وليس على أساس الفئات، وأن يجتمع الأعضاء جميعا في قاعدة واحدة كممثلين للشعب الفرنسي بأكمله، وتمسكت الحكومة وممثلوا رجال الدين والنبلاء بطريقة الاقتراع التقليدية حتى تظل الأغلبية للفئتين المميزين، وهو ما أحدث أزمة شديدة بين الجميع.

ولقد برزت خلال هذه الأزمة التي استمرت ستة أسابيع فكرتنان كان لهما أثرهما في تاريخ فرنسا: الأولى: إعلان ممثلي الفئة الثالثة أنهم هم مندوبوا الشعب، والثانية: الدعوة إلى وضع دستور جديد للبلاد. وأخيرا فى يوم ١٧ يونية ١٧٨٩م أطلق أعضاء الطبقة الثالثة على انفسهم اسم " الجمعية الوطنية" ودعوا الباقين ليجتمعوا معهم للعمل على إصلاح الأحوال، وقد حاول الملك أن يستخدم شخصيته فى إقناع الطبقة الثالثة بأن تسلك مسلكا اكثر اعتدالا واحتفاظا بالتقاليد القديمة وتقرر إغلاق قاعة الاجتماعات فى المجلس لإعدادها لجلسة يحضرها الملك، وحضوره يقضى على حسب التقاليد القديمة، قبول ما يأمر به دون اعتراض، ولذلك اتخذ الأعضاء قرارهم بالاستمرار في عقد اجتماعهم في مكان آخر وتزعم الحركة الأب سييز Sieyes وميرابو" واختاروا لذلك مكانا قريبا هو ملعب التنس " المجاور لقصر فرساي وبعد سماع الخطب الحماسية المثيرة اقسم الجميع على ألا ينفصلوا قبل وضع دستور جديد لفرنسا.

لقد كان هذا القسم في ملعب التنس بداية حقيقية للثورة الفرنسية، وفي هذه الساعات الحاسمة حدث تحول جديد لصالح الثورة، عندما أعلن عدد من النبلاء الأحرار وفريق من رجال الدين الانضمام إلى الحركة الجديدة، ومنذ ذلك الحين شرعت الجمعية الوطنية في تفويض النظام القديم وقررت أن تصبح جمعية تأسيسة لوضع دستور جديد للبلاد على أن الأمور لم تكن تسير على ما يرام لكى تتفرغ الجمعية لذلك التغيير فقد انطلقت إشاعات السوء عن عزم لويس السادس عشر استخدام القوة ضد الحركة الجديدة، خاصة بعد قيامه بعزل الوزير" نكر" وأمر بإقامة معسكر قرب فرساي، وهو ما دفع العاطلون المتشردون والشحاذون إلى القيام بأعمال العنف

وراح الكثيرون يبحثون عن السلاح فهاجموا المخازن العسكرية ونهبوا متاجر الأغذية ثم اتجهت الجموع إلى حصن الباستيل لاقتحامه.

(ج) سقوط الباستيل ١٤ يوليه ١٧٨٩ م

كان حصن الباستيل من الحصون الإقطاعية القديمة ، ثم تحول الحصن إلى سجن رهيب كان رمزاً للطغيان والاستعداد ، وقد هاجمه المتظاهرون في حماس جنون ، وقتلوا الحراس ، وأخرجوا المسجونين القلائل الذين كانوا أقرب إلى الأموات منهم إلى الأحياء ، وطالهوا بـــــم شوارع باريس في نشوة الانتصار على النظام القديم ، ولقد عد الهجوم على سجن الباستيل في ١٤ بوليه ١٧٨٩ م عملا م سياسياً رائعاً هلل له الناس في طول أوربا وعرضها مرحبين بسقوط الباستيل ولما كان لويس السادس عشر في حالة لا يستطيع معها دفع هذا الخطر المتزايد ، فقد - حاول الانحناء للعاصفة بعدم اعتراضه على حادث الباستيل ، وزار باريس بنفسه في 17 يولية ١٧٨٩ م كإعلان عن رضائه عن أهلها ، بل حضر بنفسه صلاة الشكر التي أقيمت في كاتدرائية نوتردام ، وهناك استقبله الشعب استقبالاً حافلاً لأنه لم يكن قد تخلى بعد عن ولاته للعرش الفرنسي ، وأجاب الملك بعض المطالب كإبعاد بعض وزرائه ، وإعادة " نكر " وزيراً للمالية وإبعاد الجند عن باريس وفرساي ، والاعتراف بلجنة المواطنين التي تألفت في باريس باعتبارها حكومة بلدية جديدة ، كذلك نتج عن سقوط الباستيل تدعيم مركز الجمعية الوطنية واستمرارها في تحقيق مهمتها في وضع دستور جديد لفرنسا ، وبدأت الجمعية تعمل على إعادة النظام إلى نصابه بتحقيق المطالب التي كانت تنادي بها الجماهير وبسقوط الباستيل بدأت باريس تسير في طليعة التاريخ ، وصار مجلس بلديتها حكومة ذات مكانة ، وحرسها الأهلى نواة لجيش شعبي ، وكان سقوطه إعلاناً مدوياً للبلاد بأن باريس لا تنوى أن يفلت الدستور من بين يديها وأن ما تريده باريس يجب أن تقبله فرنسا ، كما تحقق كذلك أن خسوف الملكية سيصبح كاملاً ، فقد أصبحت عاجزة أن تحمى أصدقاءها ، وألزم الملك على أن ينقض أوامره للجنود ، وأن يعزل وزراءه ، وأن يبارك علانية استيلاء العامة على الباستيل وأن يقبل الشارة المثلثة الألوان كعلم لفرنسا والتي كان قد ابتدعها الجنرال " لافاييت " بطل حرب الاستقلال الأمريكية . ومن أهم نتائج سقوط الباستيل هجرة عدد كبير من الأمراء والأشراف من أعـــداء الثورة إلى خارج فرنسا للعمل ضد الحركة الجديدة ، والحقيقة أن جميع الكوارث التي انتابت فرنسا إبان الثورة كظهور سياسة الإرهاب وارتكاب الفظائع وإعـــدام لويـــس السادس عشر وزوجته ماري انطوانيت لها صلة وثيقة بالمخاوف التي أثارها حقد المـــــهاجرين وتأمرهم على بلادهم بالتحالف مع أعدائها وعلى أية حال فإن القلق من وجود الملك في قصر فرساى بعيداً عن باريس ومجلس بلديتها والذي قد يعينه على جمع الجند حوله وتدبير الفرار من باريس ، كل هذا جعل المتحكمين في الأمر يفكرون في تحويل الملك بقصر التويلليرى بباريس ، وقد حدث بالفعل عندما رفض الملك التصديق على قانون أجازته الجمعية الوطنية وعندما أشيع بأنه يفكر في الفرار ، وسقوط الباستيل أدىء إلى الميار النظام القديم بعد أن تنازل الأشـراف ورجال الدين وأعضاء مجالس المقاطعات والبلديات والشركات والنقابـــات عن حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية •

وقد أشاع سقوط الباستيل الفوضي ، فلقد سادت الإدارة والجيش والأسطول ، وأشعل الفلاحون النار في قلاع أسيادهم وقصورهم ، ولم يوجد في طول البلاد وعرضها من يطيع القانون أو يدفع الضرائب . وبدأت تسرى في البلاد روح جديدة مؤداها أن الشعب هو صاحب

السيادة ومصدر كل سلطة وبدت ملكية النظام القديم للناس خدعة كبرى ، وأن الفرنسيين لم يعودوا بعد الأمة المستضعفة ولا يوجد قوة في العالم تستطيع أن تسيطر أو تقف في وجه إرادة الشعب التي تعبر عنها الجمعية الوطنية الممثلة الشرعية لها ، وأن روح الاتحاد التى تؤلف بين أعضاء الجماعة الواحدة سواء أكانت هذه الجماعة مجلس مقاطعة أم مجلساً بلدياً أم طبقة من طبقات المجتمع أم شركة أم نقابة عمل يجب أن تزعن لأوامر فرنسا التي لا يتجزأ ، وقد كانت هذه هي الفلسفة التي انطوى عليها " إعلان حقوق الإنسان "

الفصل الثالث

أوروبا والتحالفات العسكرية

- بسمارك ونظام التحالفات.
- الموقف الدولي في أوروبا بعد حرب السبعين.
- المسألة الشرقية.

التحالفات الأوروبية ومعاهدات الضمان (١٨٧٩ – ١٨٩٠) .

- التحالفات الدولية بعد سقوط بسمارك.

كان نمو القومية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر فرصة حقيقية لنمو النزعة إلى الحرب مع بداية القرن العشرين، وذلك بعدما اكتمل تحقيق الوحدة القومية لمجموعة من الدول الأوروبية، وعلى رأسهم ألمانيا وإيطاليا، والنزعة إلى الحرب جعلت الدول الأوروبية تخشى من بعضها البعض، فكانت النتيجة لذلك تكوين الأحلاف العسكرية، والتي وجدت فيها الدول الأوروبية تأمينا لحدودها، بل وفرصة لتحقيق أطماعها، فكانت الأزمات الدولية التي خلفتها الدول الأوروبية رغبة في جني المكاسب من ورائها.

أولا : بسمارك ونظام التحالفات (١٨٧١ – ١٨٩٠) .

1- الموقف الدولي في أوروبا بعد حرب السبعين :

كان عام ١٨٧٠ سنة مهمة في تاريخ العالم وفي توجيه سياسة الدول الكبرى وجهة جديدة . لقد انهارت فرنسا كأولى دول القارة من الناحية الحربية ، وحلت محلها الدولة الألمانية الجديدة التي قامت بصفة خاصة على يد بسمارك وعلى تفوق الجيش الألماني وعلى زعامة بروسيا ؛ ونتيجة لذلك ، أخذت الدول الأوروبية المختلفة تعمل على التقرب من هذه الدولة الجديدة المتفوقة . أصبحت الدولة الألمانية الجديدة بمواردها الاقتصادية الغنية ، وبحماستها الوطنية ، أقوى دولة في أوروبا من الناحية الحربية ، ولكن بسمارك كان يعلم بأن فرنسا كدولة قوية لم تنته بعد ، فلا زالت لها حيويتها الكبيرة ونشاطها وأملها في المستقبل ، خاصة وأن الدول الأوروبية لم تكن لترضى مطلقا القضاء عليها تماما. وكان بسمارك يعلم ، كذلك ، أن ألمانيا مهما بلغت قوتها الحربية ومواردها الاقتصادية ، فهي ما برحت دولة حديثة التكوين ، لم تصبح جزءا من النظام الدولي الأوروبي إلا في عام ١٨٧٠ . وهكذا أيقن بسمارك أن الألمان بانتصارهم الحاسم على الفرنسيين قد أثاروا بقية الدول الأوروبية الكبرى وأحقادها .

لقد أفاقت انجلترا من حيادها الطويل ومن سياسة العزلة التي اتبعها جلادستون (Gladstone) لتجد أن قوة حليفتها القديمة فرنسا قد تحطمت ، وأن دولة أعظم نشاطا وهي ألمانيا قد سيطرت على هذه الدولة الجديدة . وأخذت تفكر في مصير أسواقها الأوروبية إذا تمكنت تلك القوة الناهضة من السيطرة على وسط أوروبا اقتصاديا ، كما سيطرت عليه إلى حد ما سياسيا . ولذلك يتغير موقف انجلترا عندما تولى ديزريلى (Bengamin Disraeli) زعيم المحافظين الوزارة في عام 1874 ، الذي كان يتوثب إلى اتباع سياسة خارجية نشيطة تخرج انجلترا من عزلتها ونعود بها إلى مركزها الممتاز في أوروبا والعالم ، ولذا سيكون بسمارك حريصا على استرضاء انجلترا في عهدها الجديد لكي توافق على النظام الجديد الذي أوجده.

أما إمبراطورية النمسا والمجر فكانت تحسب حسابا حقيقيا للدولة الألمانية الجديدة التي تجاورها من الشمال . فكان يوجد في النمسا عدد كبير من الجيش الألماني يقطن في أوستريا (Austria) ويتطلع الجزء الأكبر منه للإنضمام إلى ألمانيا ، وبذلك تحقق الوحدة الألمانية الحقيقية وبجانب هذا الفريق ، وجد فريق آخر كان متشبعا بحب آل الهابسبرج ، وله مصالح إقطاعية ومعنوية تربطه بذلك البيت العتيق ، ثم إن انفصال الجزء الألماني عن جسم إمبراطورية النمسا والمجر كان معناه زوال إمبراطورية الهابسبرج لأنها تعتمد في ثروتها ونفوذها على الجزء الألماني الصرف من أراضيها ، وهو الجزء الصناعي . ولم ينس هذا الفريق بسهولة الهزيمة المرة التي تلقتها النمسا على يد ألمانيا في سادوقا ، ولذلك عمل جاهدا على إيجاد تحالف بين النمسا وأعداء ألمانيا مثل فرنسا وعلى فصم العلاقة القوية بين روسيا وألمانيا . غير أنه وجد فريق آخر وهو الفريق المجرى الذي كان يتزعمه الكونت أندراشي (Count Gyula

Andrassy) . وزير خارجية النمسا ، كان هذا الفريق يريد السيطرة على الفريق الألماني السابق ، ووسيلته الوحيدة في تحقيق ذلك هي توثيق الصله بينه وبين ألمانيا حتى لا يتفوق فيها العنصر الصقلبي وعلى العموم كان موقف النمسا يتسم بالتردد والحذر والخوف ، غير أن بسمارك كان يفهم الموقف في النمسا جيدا ، فأخذ يعمل على استرضائها « فهي الحليف الذي يعده للمستقبل .

أما روسيا فكانت تربطها صداقة قديمة مع بروسيا منذ حرب القرم ، كما كانت هناك علاقات شخصية وعائلية بين الأسرتين الحاكمتين : أسرتى رومانوف وهوهنزلرن . وبسبب هذه الصلة المتينة ، وقفت روسيا موقف الحياد والعطف على الهوهنزلرن في حربهم مع النمسا ومع فرنسا . وإذا كانت روسيا قد اتخذت هذا الموقف انتقاما لنفسها من النمسا وفرنسا ، فإنها كانت تشعر بأنها أدت خدمة جليلة لبسمارك ولذلك فهي تنتظر المكافأة من ألمانيا ، ولكن بسمارك كان يعرف تماما بأن روسيا تعمل لمصلحتها قبل كل شئ . غير أن روسيا أفاقتكان عام ١٨٧٠ لتجد على حدودها الغربية أقوى دولة حربية في أوروبا ، وأدركت أنه ربما ، من مصلحتها ألا تترك فرنسا تنهار أمام ألمانيا بهذا الشكل . ولذلك وقفت روسيا موقف الحاسد المترقب لآية فرصة تمكنها من الحد من قوة ألمانيا وكان بسمارك يفهم موقف روسيا تماماً ، ورأى من الحكمة استصلاحها وضمها إلى جانبه والإبقاء على صداقتها بقدر المستطاع .

حاول بسمارك ، إذن ، عزل فرنسا وإبعادها عن أصدقائها وهما الروسيا والنمسا ، ولذلك أسرع بالتفاهم معهما . ففى عام ١٨٧٢ دعا بسمارك كل من إمبراطور النمسا وقيصر الروسيا إلى برلين حيث اجتمعا بالإمبراطور الألماني وليم الأول ، واتفق الأباطرة الثلاثة شفويا على المحافظة على الوضع الراهن في أوروبا ، ومقاومة الحركات الثورية التي تهدد أنظمة الحكم القائم في هذه الدول . وازدادت العلاقات بين الأباطرة الثلاثة توثقا عندما زار بسمارك روسيا في العام التالي بصحبة الإمبراطور الألماني ، وأمكن التوصل إلى عقد إتفاقية عسكرية سرية بين ألمانيا وروسيا ، وعدت ألمانيا بموجبها إرسال ٢٠٠,٠٠٠ جندى إلى روسيا فيما إذا اعتدت على الأخيرة دولة أوروبية ، على أن تقدم روسيا نفس المساعدة إلى ألمانيا إذا وقع عليها إعتداء . وفي يونيو من نفس العام زار القيصر الروسي فينا حيث وقع الجانبان الروسي و النمسوى إتفاقية تقضي بإجراء مشاورات في كل مسألة تتعارض فيها مصالح الدولتين ، وكذلك وعد كل منهما الآخر بالتفاهم حول توحيد الخطط في حالة اعتداء عسكري عليهما دون ما حاجة إلى إتفاق عسكري جديد . وبعد إنضمام الإمبراطور الألماني إلى هذا الإتفاق تكون تخالف (أو عصبة) القياصرة الثلاثة (Dreikaiserbund) في عام 1873.

وعلى آية حال ، فلقد اقتنع بسمارك أن الوسيلة المناسبة لاقناع الدول الأوروبية الكبرى بالاعتراف بمركز ألمانيا الجديد في أوروبا ، هو استصلاح تلك الدول كان بسمارك محتاجا إلى السلام لكى يتفرغ لمعالجة المشاكل الداخلية الخطيرة التي واجهته ، ولتدعيم الوحدة التي تمت في ميدان الحرب . ولكن فرنسا كانت تقف وراء الحدود متعطشة للإنتقام إذا سنحت لها الفرصة المناسبة ، فلقد تخلصت سريعا من نتائج أخطاء الماضي ، ودفعت الغرامة الحربية بسرعة أثارت إعجاب العالم بقدر ما أزعجت بسمارك . ووجد بسمارك في سقوط تيير ، ذلك الجمهورى المحافظ ، وفي إعتلاء مكماهون الكاثوليكي الملكي ورجل الحرب ، مدعاة لإثارة مخاوفه لأنه كان يعرف جيدا أن فرنسا في ظل حكم الأحزاب اليمينية ستكون أكثر تفاهما مع روسيا ومع البابوية .

وهذا ما سعى بسمارك إلى تجنبه لعزل فرنسا عن القوى الأوروبية المناهضة له ولسياسته . كذلك كان بسمارك متضجرا من رغبة فرنسا في الثأر ، ومن « حركة الانتقام » التي كانت ترمي إلى الإنتقام من ألمانيا واسترداد الالزاس واللورين ، ولهذه الأسباب اضطر بسمارك دائما إلى إتباع سياسة تهديد فرنسا وتحذيرها وإنذارها حتى لا تفكر في إثارة حرب جديدة ربما أدت إلى تدخل الدول الأوروبية والإطاحة بما لألمانيا من مركز متفوق . وبلغت الأزمة بين فرنسا وألمانيا حداً هددت بالحرب بين الدولتين في عام 1875 ، وعندئذ اضطر ديكاز (Decazes) ، وزير خارجية فرنسا ، إلى الاستنجاد بانجلترا وروسيا موضحاً لهما أن فرنسا لا تريد الحرب وأن ألمانيا تعد حربا تقضى فيها على فرنسا تماما . وكانت كل من الدولتين تؤيدان فرنسا ، فالإبقاء عليها كقوة دولية ضروري لحفظ التوازن الأوروبي، وتدخلت الدولتان بسرعة لمنع تدهور الموقف ، وأرسل كل من قيصر الروسيا وملكة انجلترا خطابا للإمبراطور الألماني يدعوانه فيهما إلى ضرورة الحفاظ على السلام . وكان لهذا التدخل أثره على سياسة بسمارك إزاء فرنسا فلقد غير بسمارك سياسة التهديد والوعيد التي اتبعها مع فرنسا ، لإنها لم تعد في عزلة سياسية كما كان يعتقد ، بل أن دولتين من دول أوروبا الكبرى تعطفان عليها ولا تسمحان بإبعادها أو القضاء عليها . وتأكد بسمارك الآن أهمية استصلاح انجلترا وروسيا : ورأى ضرورة استخدامهما حتى تتمكن ألمانيا من المحافظة على تفوقها في أوروبا . ووجد بسمارك في ممتلكات الدولة العثمانية ما يحقق تنفيذ سياسة التعويض Compensation ، وألمانيا ليست كـالـروسيا أو النمسا لهـا أطماع في الدولة العثمانية تحاول الوصول إليها بمختلف السبل ، فهي عازفة عزوفا تاما عنها ، كما أنها لا تساوى عند بسمارك دم جندي بروسي . غير أنها في نظره تمثل الوليمة التي ستدعى إليها الدول الكبرى لاشباع رغباتهم ونزواتهم ، وهو لذلك رحب بأن توجه هاتان الدولتان جهودهما نحو تقسيم البلقان لينشغلا بعض الشئ عن مناصبة ألمانيا العداء أو العمل على الاتفاق مع فرنسا . وعلى هذا الأساس قامت النظرية الألمانية أو سياسة « التعويض » على الأسس التالية :

1- تستطيع حكومة القيصر الروسي الإشراف على شرقي البلقان
2- تستطيع إمبراطورية النمسا والمجر الإشراف على غربي البلقان في المناطق الغربية من حدودها الدلماشية والكرواتية.
3- تستطيع انجلترا إرضاء مطامعها والمحافظة على التوازن الدولي في شرقي البحر المتوسط بالسيطرة على مصر ، وكان بسمارك يعلم تماما مدى اهتمام انجلترا.
4- بمصر وخصوصا بعد تطور سياستها الهندية وإشراف الحكومة البريطانية نفسها على الهند منذ عام 1858 ، بعد أن كانت شركة الهند الشرقية هي المشرفة عليها ، وقد تزايد اهتمام انجلترا بمصر منذ إفتتاح قناة السويس عام 1869 التي ستصبح في نظرها الشريان الحيوى لإمبراطوريتها .

تستطيع فرنسا إذا أحسنت سلوكها نحو ألمانيا وتناست مسألة استرجاع الألزاس واللورين أن تستعيض عن الولايتين المفقودتين بأخذ سوريا أو تونس . وهكذا عمل بسمارك على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية لإرضاء الدول الكبرى ولحفظ السلام في أوروبا ، وبالتالي المحافظة على الوضع الدولي المتفوق لألمانيا في أوروبا . وهكذا رأى بسمارك ضرورة استخدام سياسة استصلاح الدول الكبرى ، وهي السياسة التي سيقوم عليها مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، والسياسة التي ستطبق خلاله وفي السنوات التي تليه . وفي الواقع كانت الظروف مـواتـيـة لبسمارك بسبب

قيام الثورة في البلقان على الحكم العثماني وظهور المسألة الشرقية من جديد ، وعودة فكرة الإبقاء أو عدم الإبقاء على ممتلكات الدولة العثمانية .

(٢) المسألة الشرقية (١٨٧٦-١٨٧٨) وسياسة الاستصلاح :

ثارت المسألة الشرقية في عام 1875 وبدأت الاضطرابات في البلقان بثورة البوسنة والهرسك ضد الحكم العثماني . وكانت روسيا تؤيد تلك الثورة ، ولكن ألمانيا كانت تفضل سياسة التعاون مع غيرها من الدول لحل هذا النزاع سلميا ، لأن قيام حرب تشترك فيها الدول الأوروبية قد يجر ألمانيا إلى الاشتراك فيها . ولهذا أيدت ألمانيا فكرة روسيا في أن تتدخل دول إتحاد القياصرة الثلاثة (ألمانيا والنمسا وروسيا) لدى الدولة العثمانية للضغط عليها لاتباع سياسة تهدف إلى القضاء على أسباب الثورة. ولكن هذا الموقف لم يرض انجلترا وفرنسا ، لأنه يحول بينهما وبين الإسهام في حل المسألة الشرقية التي كانت تعتبر من أهم المشاكل الأوربية في ذلك الوقت . كما أنه يمنح روسيا حرية العمل على تحقيق أطماعها في ممتلكات الدولة العثمانية وهو ما يتعارض مع سياسة كل من الدولتين. واضطر الباب العالي أمام تدخل الدول إلى إصدار فرمان في ١٢ ديسمبر عام 1875 يتضمن بعض الاصلاحات لتحسين أحوال سكان هاتين الولايتين.

ولكن الثورة لن تنقطع بصدور هذا الفرمان ، فاستمرت الثورة في البوسنة والهرسك واستعد الجبل الأسود والصرب لمساعدتهما . ولهذا اجتمع بسمارك وجورتشاكوف(Gortchakoff) , وزير خارجية روسيا ، والكونت أندراشي ،وزير خارجية النمسا ، في برلين في مايو عام ١٨٧٦ دون اشتراك انجلترا ، وتقدموا إلى الحكومة العثمانية بمقترحات من وحي الروسيا تضمنتها ما أطلق عليه إسم مذكرة برلين (Berlin Memorandum) بعد موافقة الحكومتين الإيطالية والفرنسية عليها وقد طلبت هذه المذكرة من الحكومة العثمانية إيقاف العمليات العسكرية لمدة شهرين ، والدخول مباشرة في مفاوضات مع رؤساء الثوار في البوسنة والهرسك بخصوص المطالب التي تقدموا بها ولكن الحكومة العثمانية رفضت المذكرة وشجعها على ذلك عدم اشتراك انجلترا في توقيعها ، هذا بالإضافة إلى ما تضمنته من مساس لحقوق الشرعية للدولة العثمانية.

وازدادت الحالة سوءاً في البلقان بقيام الثورة في بلغاريا ، إذ قام أهل البلاد بتدبير مذبحة للموظفين المحليين من العثمانيين ، ورأى العثمانيون في تلك الثورة أصابع الروس واضحة تنذر بتفويض الحكم العثماني في أوروبا . وتلا قيام الثورة في بلغاريا إعلان الصرب والجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية وبإعلان الحرب تمت الحلقة الأولى من المخطط الروسي ، الذي كانت روسيا تعمل جاهدة على تحقيقه ، وذلك بأن تتاح لها فرصة التدخل للقضاء على الدولة العثمانية . ولكي لا تعرقل النمسا تنفيذ هذا المخطط ، عقدت معها في 8 يوليو عام ١٨٧٦ اتفاقية رشتشتادت (Reichstadt) وفيها اتفق الطرفان على مبدأ عدم ا التدخل ، فإذا انتصر العثمانيون على الصرب وجب التدخل لمنع العثمانيين من الانتقام وحرمانهم ثمرة النصر ، وإذا انتصرت الصرب تتدخل الدولتان فتأخذ الروسيا بسارابيا من رومانيا وتحتل النمسا البوسنة والهرسك ، وفي حالة انهيار الدولة الأستانة مدينة حرة ؛ وعلى أساس هذه التسوية أمنت الروسيا جانب النمسا وأمنت النمسا جانب الروسيا العثمانية.

وعندما فشلت الصرب في الحرب فشلا ذريعا ، اضطرت روسيا للتدخل الفعلى مناصرة لفكرة الجامعة الصقلبية واضطرت روسيا للتدخل عندما أصبحت بلغراد نفسها عاصمة الصرب في خطر . ولذا أسرعت روسيا باقتراح هدنة وعقد مؤتمر من الدول ، ولكن العثمانيين

المنتصرين رفضوا الهدنة قبل أن تقدم الصرب شروط صلح يرضونها . وكانت روسيا ترغب في مدة هدنة طويلة حتى تستطيع الصرب لم شعث قواها ، بينما كانت الدول الأخرى ترغب في هدنة قصيرة ، واختلفت الآراء بين الدول ووجد المستشار الألماني بسمارك في هذا الموقف فرصته في التدخل لتنفيذ سياسته التي طالما أعلنها من قبل ، وهي عدم حل المسألة الشرقية بشكل جزئي ، وإنما تطرح المسألة برمتها على بساط البحث . وحرص بسمارك على توجيه نظر انجلترا إلى استغلال فرصة هياج المسألة الشرقية لأخذ ، وقال بأنه إذا استشير فيما يجب أن تكون عليه سياسة انجلترا الخارجية ، فإنه يقترح بريطانيا نفس السنن التي تنتهجها روسيا ، فإذا كانت روسيا تريد أن تستحوذ على النقط الاستراتيجية اللازمة لها بالسيطرة على المضايق ، البوسفور والدردنيل ، والإشراف على الآستانة ، فعلى الحكومة الإنجليزية أن ، تقابل ذلك بالسيطرة على مصر وقناة السويس » . وكان هذا الحل خيرا في نظره من معارضة انجلترا لروسيا في البلقان وقيام حرب بينهما قد تتحول إلى حرب أوروبية , ربما تعصف بما لألمانيا من مركز متفوق ، ولقد قال بسمارك في هذا الصدد » أنه من الخير لانجلترا أن تأخذ قناة السويس والإسكندرية بدلا من أن تعلن الحرب على روسيا ، وبذلك وحده تتوثق عرى السلم في أوروبا » . ولكن حكومة المحافظين في انجلترا لم تقبل هذا الاقتراح بسهولة ، فرئيسها دزريلى ، رغم أنه هو الذي اشترى أسهم الخديو إسماعيل في قناة السويس عام ١٨75 ، ورغم تعلقه الكبير بالشرق ، ورغم أنه زار مصر فبهره جمالها وأبهتها وسحرته حضارتها القديمة وضخامة آثارها وبهاء نيلها وكثرة خيراتها ، « إلا أنه لم ير في ذلك الوقت أن احتلال انجلترا لمصر وسيلة مفيدة لدرء الخطر الروسي عن الشرق الأدنى فقال إذا أخذ الروس الأستانة ، فإنه يمكنهم في أي وقت الوصول إلى سورية ووادى النيل .

ويبدو في عام ١٨٧٧ كانت تخشى عواقب اتباع سياسة بسمارك ؛ وفي الواقع كانت سياسة انجلترا قبل السبعينات من القرن التاسع عشر هي سياسة المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية وعلى تماسك ممتلكاتها ، وهي السياسة التي وضع أسسها اللورد بامستون ، وزير خارجية انجلترا خلال النصف الأول من هذا القرن . ولكن حملات جلادستون التي قامت في انجلترا بعد حركة القمع التي قام بها العثمانيون في بلغاريا ، كانت من أهم العوامل التي أطاحت بسياسة انجلترا التقليدية إزاء الدولة العثمانية ، تزعم جلادستون زعيم | المعارضة من الأحرار الحركة التي ترمي إلى التخلص من هذه السياسة القديمة ، وكتب عدة مقالات أهمها " The Bulgarian Horrors " ، التي وصف فيها الأتراك بأبشع ما توصف به أمة من الأمم ، واتهمهم بأنهم أعداء الإنسانية كان لهذا الموقف أثر كبير على الرأى العام الإنجليزي فلم يعد هناك من نصير قوى للدولة العثمانية خصوصا بعد أن أعلنت الحكومة العثمانية عجزها عن دفع فوائد الديون التي اقترضتها من انجلترا ، فازداد السخط في الدوائر المالية عليها، وشعرت حكومة المحافظين في انجلترا بأنه لم يعد في استطاعتها الدفاع عن سياسة انجلترا التقليدية إزاء الدولة العثمانية ، ولكن موقف انجلترا نحو روسيا وأطماعها لم يتغير ، فلا زالت حريصة على وقف التوسع الروسي نحو البحر المتوسط ، وعندما يتولى اللورد سولزبرى Salisbury منصب وزير الخارجية في أوائل صيف عام ١٨٧٨ ، ستتخذ انجلترا موقفا حاسما إزاء كل من روسيا والدولة العثمانية ؛ فكان سولزبرى يمقت الدولة العثمانية مقتا شديداً ، ويعتقد أن الأتراك لا يصلحون للبقاء كدولة حديثة « فأفكارهم في نظره غير معقولة ، وحكومتهم فوضى » .

لقد أدرك سولزبرى أن وجود الدولة العثمانية الضعيفة . شأنه أن يعرض مصالح بريطانيا الإمبراطورية للخطر ، ولذلك قرر استبعاد الدولة العثمانية من شرق أوروبا وتقسيم

ممتلكاتها ، وهكذا وضع سولزبرى حداً نهائيا للسياسة الإنجليزية التقليدية نحو الدولة العثمانية من الناحيتين العملية والنظرية .

وبدأت تظهر أطماع انجلترا في ضم جزء من ممتلكات الدولة العثمانية مثل مصر أوكريت أو قبرص . وفي حقيقة الأمر كانت نفس انجلترا تهفو إلى احتلال مصر ، وطالما شجعها بسمارك على ذلك منذ عام 1875 ولكنها خشيت الاقدام على هذه الخطوة حتى لا تسئ إلى علاقاتها مع فرنسا . ولذا اتجه نظر انجلترا إلى جزيرتى كريت وقبرص ، ولكن سولزبرى ورجال الحرب فضلوا احتلال قبرص . لها من موقع ممتاز في البحر المتوسط ، فهي « مفتاح آسيا » وجبل طارق جديد ؛ ومما رجح قبرص على غيرها إشرافها على السواحل المصرية الشمالية ، وقربها من ممتلكات الدولة العثمانية الآسيوية حيث تتركز أطماع روسيا . وبدأت المفاوضات السرية بين الدولة العثمانية وانجلترا ، واختارت انجلترا توقيتا مناسبا للدخول في تلك المفاوضات ، وهو الوقت الذي استعرت فيه الحرب بين روسيا والدولة العثمانية ، واندحرت قوات الأخيرة أمام ضربات روسيا . وأمام التهديد الانجليزي بالقضاء على الإمبراطورية العثمانية ، اضطر السلطان إلى توقيع اتفاقية ٢٦ مايو عام ١٨٧٨ ، التي قبلت الدولة العثمانية بمقتضاها احتلال الانجليز لجزيرة قبرص مقابل حماية انجلترا للدولة ، وعلى هذا النحو نفذت انجلترا من الناحية العملية فكرتها لنظرية تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، ومغادرة السياسة التقليدية نهائيا . أما عن الموقف في البلقان ، فقد كانت روسيا تستعد للحرب ، ودخلت في مفاوضات مع النمسا انتهت في 15 يناير بتوقيع اتفاقية بودابست السرية (Budapest Convention) ، وتنص على وقوف النمسا على الحياد في حالة قيام حرب بين الدولة العثمانية وروسيا بشرط أن توافق روسيا على احتلال النمسا للبوسنة والهرسك في معاهدة الصلح .

وفي ٢٤ أبريل عام ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وأقدمت على ذلك لاعتقادها أن انجلترا لن تستطيع التدخل هذه المرة لتأييد الدولة العثمانية ، فالرأى العام الإنجليزي كان قد انصرف كلية عن السياسة التقليدية القديمة . وكانت خطة روسيا عند دخولها الحرب الإسراع بعبور الدانوب ، ومهاجمة القوات العثمانية ثم اختراق جبال البلقان ومهاجمة القسطنطينية نفسها ، وبذا تضع حدا لمسألة الدولة العثمانية ، كما تضع الدول أمام الأمر الواقع . ودعا انتصار الروس إلى التفكير في شروط الصلح التي تفرض على الدولة العثمانية ، ولكن عندما بدا الخطر واضحا على الاستانة والمضايق ، أرسلت انجلترا ببعض قطع من أسطولها إلى البحر المتوسط للوقوف على مقربة من الدردنيل وأدى ذلك إلى توتر العلاقات بين روسيا وانجلترا ، ودخلت ألمانيا للتوفيق بين الدولتين .

وفي تلك الأثناء فرضت روسيا في 3 مارس عام ١٨٧٨ معاهدة سان استفانو على الدولة العثمانية ، ونصت تلك المعاهدة على اعتراف الدولة العثمانية بحرية الملاحة في المضايق ، وتعهدها بإغلاق البحر الأسود في وجه الدول المعادية لروسيا في وقت الحرب . كذلك نصت على استقلال رومانيا بصفة نهائية عن الدولة العثمانية مع منحها جزءاً من دلتا نهر الدانوب . أما بلغاريا فتضم إليها إقليم دبروجة وبذلك تتسع رقعتها ، وتصبح ولاية كبيرة تتمتع بالاستقلال الذاتي مع الاعتراف بالسيادة الإسمية للباب العالي ، وإلى أن تصبح تلك الولاية قادرة على حماية نفسها تقرم القوات الروسية باحتلالها ؛ كذلك تلحق أجزاء من الهرسك بالجبل الأسود . أما بخصوص روسيا فتضم إليها إقليم بسارابيا وأردهان وقارص وباطوم وجزء من أرمينية ، هذا بالإضافة إلى غرامة حربية فرضتها على الدولة العثمانية قدرها ٢٣٥ مليون جنيه.

هاجمت انجلترا والنمسا تلك المعاهدة لأنها منحت روسيا امتيازات واسعة في البلقان ، إلى جانب سيطرتها على المضايق والملاحة في البحر الأسود . فرأت انجلترا أن روسيا حصلت بمقتضى المعاهدة على مركز متفوق في شرقي البحر المتوسط يهدد مصالح انجلترا وسلامة مواصلاتها إلى الهند وجنوب شرقي آسيا ، أما النمسا فلم تحصل على نصيب من الغنيمة ، وكانت تطمع في زيادة نفوذها في غربي البلقان . وهنا اتجهت الأنظار إلى ألمانيا وانتقل مركز الثقل السياسي إلى برلين ، وتدخل بسمارك لإنقاذ السلام الأوروبي فتوسط بين النمسا وروسيا ، ووافقت الأخيرة على الاعتراف بحق النمسا في البوسنة والهرسك . وبذلك تحقق النمسا السيطرة على غربي البلقان مقابل سيطرة الروس على شرقيه ، وتعادل بالتالي نفوذ الدولتين في البلقان . أما في انجلترا فقد جرت مفاوضات بين سولزبرى وشوفالوف Shuvalov ، السفير الروسي في لندن ، وأوضحت انجلترا أنها تعارض معاهدة سان استفانو لسببين أولهما أن المعاهدة أوجدت دولة بحرية جديدة هي بلغاريا مما أخل بالتوازن بين دويلات البلقان ؛ وثانيهما ، أنها وضعت الباب العالى تحت رحمة روسيا .

ولم تمانع روسيا في تعديل بنود معاهدة سان استفانو بما يتمشى مع مقترحات انجلترا ، ولكن انجلترا كانت قد وقعت في تلك الأثناء المعاهدة الدفاعية مع الدولة العثمانية التي احتلت بمقتضاها قبرص ولما كانت هذه المعاهدة سرية ، فلم تعلم بها روسيا والدول الأوروبية الأخرى . وبذلك ضمنت انجلترا سلامة ممتلكات الدولة العثمانية الأسيوية وسلامة مصالحها الإمبراطورية واتفقت الدول الأوروبية على ضرورة إعادة النظر في معاهدة سان استفانو في مؤتمر دولي عقد في برلين ، وكان انعقاد المؤتمر في برلين برئاسة بسمارك اعتراف من الدول الأوروبية بتفوق النفوذ الألماني . وفي الواقع لم يكن اجتماع الدول الأوروبية الكبرى لإعادة النظر في معاهدة سان استفانو بقدر ما كان للموافقة على الاتفاقات التي تمت بين روسيا والنمسا من ناحية ، وبين روسيا وانجلترا من ناحية أخرى . واجتمع المؤتمر في 13 يوليو عام ١٨٧٨ ، وثارت مناقشات عنيفة خلال الجلسات رغم أن كثيراً من المسائل قد سويت قبل عقد المؤتمر ، ولا سيما ما يتعلق ببلغاريا وباطوم . وعلى آية حال ، توصل المندوبون إلى الاتفاق فيما بينهم على بنود معاهدة برلين التي تكونت من أربع وستين مادة، ونصت على ما يلى :

1 ـ تصبح بلغاريا ولاية لها استقلال داخلي ، وتدفع الجزية وتدين بالولاء للسلطان العثماني ، وتكون لها حكومة مسيحية وقوة بوليس قومية . ٢ ـ فصل ولاية الروملي الشرقية عن بلغاريا الكبرى ووضعها تحت الحكم العثماني المباشر ، وبذلك تكون بلغاريا قد تقلصت.

3 ـ توضع البوسنة والهرسك تحت الاحتلال النمسوى على أن تظل الإدارة العثمانية في صنجق نوقى بازار .

4 ـ يعترف الباب العالي والدول باستقلال الجبل الأسود .

ه ـ اعتراف الدول باستقلال الصرب (بهذا وضع الأساس الذي ستقوم عليه دولة يوغوسلافيا الحديثة)

6 ـ اعتراف الدول باستقلال رومانيا التي حصلت على إقليم دبروجة ولكن فقدت بسارابيا التي حصلت عليها روسيا .

7 ـ تنازل الباب العالي لروسيا في آسيا عن أراضي اردهان وقارص وباطوم .

8 ـ أعلن الباب العالى رغبته في منح حرية الاعتقاد الديني ، ولا يجب أن يقف الاعتقاد الديني عقبة في سبيل الحقوق السياسية والدينية وتعترف بحق القناصل في حماية رعاياهم .

وهكذا حاولت معاهدة برلين (١٨٧٨) التوفيق بين مصالح الدول الكبرى في البلقان ، ونفذت إلى حد كبير سياسة الاستصلاح والتعويض التي وضعها بسمارك بين روسيا وانجلترا والنمسا والمجر ، فقوى النفوذ الروسي في شرقي البلقان ، ونمى النفوذ النمسوي في غربة ، ورضيت انجلترا حين وضع حد لأطماع روسيا في الإشراف على القسطنطينية والمضايق ، وكذلك في تقسيم بلغاريا إلى قسمين أحدهما مستقل والآخر تحت حكم الدولة العثمانية . وبذلك قضت على أهداف روسيا في إنشاء الدولة البلغارية الكبرى التي تتمتع ب بتأييدها ولكن مع ذلك ، لم تستطع انجلترا القضاء كلية على أطماع روسيا ، فلقد أتاح لها الاستيلاء على القوقاز وأزدهان وباطوم فرصة طيبة للتوسع في آسيا من ناحية ، وفي متاخمة حدود الدولة العثمانية واقترابها من آسيا الصغرى والعراق من ناحية أخرى . ولكن مما خفف على انجلترا ، استيلاؤها على جزيرة قبرص لإيجاد نوع من توازن القوى في شرقي البحر المتوسط أما ألمانيا فقد بدت أمام الدول الأوروبية الكبرى دولة منزهة عن الأطماع ، كل همها هو استصلاح دول أوروبا، وتحقيق السلام المنشود . ولكن خلال السنوات التي ستعقب مؤتمر برلين سيظهر التقارب الواضح بين ألمانيا والدولة العثمانية ، إذ سيعتبر العثمانيون أن ألمانيا رغم قسوتها كانت أكرم من غيرها من الدول فلم تقتطع شيئاً لنفسها في المؤتمر .

وترتب على معاهدة برلين بعض النتائج الهامة نذكر منها ما يلي :

1 ـ وضعت المعاهدة حدا لأطماع روسيا في تقدمها نحو الغرب ، ووجهتها

٢ ـ كان استيلاء انجلترا على قبرص مقدمة منطقية لاحتلال مصر في الوقت المناسب ، فجزيرة قبرص تواجه السواحل المصرية الشمالية ، وتمثل نقطة وثوب ومراقبة في مواجهتها ، وتمنح انجلترا موقعا استراتيجيا هاما تستطيع بطريق غير مباشر إلى التوسع في آسيا ، حيث بدأت تصطدم بقوى آسيوية وأوروبية مثل اليابان وانجلترا وفرنسا . الهيمنة على مصر ، ومنع أية دولة أوروبية من الاقتراب منها

3- تزايد اهتمام العثمانيين وخاصة السلطان عبد الحميد الثاني بفكرة الجامعة الإسلامية ، وبالتقارب من ألمانيا لتستطيع الوقوف أمام مطامع الفرنسيين في تونس ، ومطامع الفرنسيين والإنجليز في مصر فاستقدمت الحكومة العثمانية بعثة حربية ألمانية لتنظيم الجيش العثماني ، وزاد النفوذ الألماني في ممتلكات الدولة العثمانية إلى حد أخذت تستغله المطامع الاستعمارية الألمانية الناشئة ، فحاولت ألمانيا وخاصة بعد سقوط بسمارك أن تعمل على تفوق نفوذها في آسيا الصغرى والجزيرة العربية فوضعت مشروع سكة حديد بغداد لتربط بين برلين واستانبول وبغداد لتقاوم نفوذ انجلترا التجاري في الشرق الأوسط وأعلنت ألمانيا صداقتها للعثمانيين وتفوق نفوذها في البلاط العثماني ، الأمر الذي دعا إلى إثارة مخاوف انجلترا من الناحية السياسية والتجارية مما سيكون له أثر كبير في التقارب الإنجليزي الروسي وتقسيم إيران إلى منطقتى نفوذ شمالية لروسيا ، وجنوبية لانجلترا ، ودعا تفوق الألمان في استانبول انجلترا إلى أن تفكر جديا في القضاء النهائي على الدولة العثمانية بتأييد الفريق الأكبر سكان الدولة العثمانية وهم العرب ، إذا وقفوا إلى جانب انجلترا .

4 ـ كان أثر المعاهدة أيضا توجيه النشاط الاستعماري نحو القارتين الآسيوية والإفريقية ، وسينظم مؤتمر برلين الذي سيعقد في عام ١٨٨٤ هذا النشاط في المجال الإفريقي ، ووضع

مبادئ عامة للاستعمار ، ونظم التسابق على مناطق النفوذ طبقا لقاعدة التراضي والتبادل . ووجهت فرنسا حملاتها إلى شواطئ أفريقيا الغربية من ناحية وإلى حوض النيجر من ناحية أخرى ، واستولت على ما عرف فيما بعد باسم غانا الفرنسية وعلى ساحل العاج وداهومي . كذلك اتسع نفوذها في منطقة النيجر الأعلى حتى بلغت بحيرة تشاد ، وأنشأت ما عرف باسم السودان الفرنسي .

وهكذا انقسمت مناطق النفوذ الأوروبي في أفريقيا الغربية إلى : المنطقة الفرنسية ، وقد ارتبطت بشمال أفريقيا بعد الاستيلاء على الصحراء ، وتشمل أفريقيا الغربية الفرنسية والكونغو الفرنسي وملحقاته وعرفت باسم أفريقيا الفرنسية الاستوائية ؛ ومنطقة النفوذ الإنجليزي وهي أوسع مدى وأعظم ثروة من المنطقة الفرنسية ، وتشمل جامبيا وسيراليون وساحل الذهب ونيجيريا ، ولا يحدها من الداخل سوى منطقة النفوذ الفرنسي . أما الكونغو البلجيكية فكانت من نصيب بلجيكا وكانت أرضها تفيض بالأخشاب الثمينة والمطاط والجلود والأورانيوم . وكان يتلو هذه المناطق في الأهمية والثروة منطقة النفوذ الألماني في توجو والكاميرون ، إلا أن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى اضطرتها إلى التنازل بمقتضى معاهدة فرساي عن كل حقوقها وامتيازاتها فيما وراء البحار، وتطبيقا لنظام الانتداب الذي وضع عقب الحرب ، ندبت فرنسا وانجلترا لإدارة توجو والكاميرون . ولم يقتصر النفوذ الأوروبي على إفريقيا الغربية بل امتد كذلك إلى إفريقيا الجنوبية وإلى شرقي أفريقيا .

ه ـ اتخذت فرنسا من استيلاء انجلترا على قبرص موضوعا للمساومة ، واعتبرت هذا العمل من قبل انجلترا إخلالا بالتوازن الدولي في شرقي البحر المتوسط ، ولم تهدأ ثائرة فرنسا إلا بعد أن أكدت لها انجلترا بأنها لن تغير شيئا في الموقف السياسي في منطقة الشرق الأدنى إلا بموافقتها . كما أبدت انجلترا موافقتها على مطامع فرنسا في تونس ، وتطلعاتها إلى المساواة في النفوذ مع

انجلترا في مصر.

3 . التحالفات الأوروبية ومعاهدات الضمان (١٨٧٩ – ١٨٩٠) :

لم يؤد مؤتمر برلين (١٨٧٨) إلى إقرار الحالة في أوروبا ، كما لم تعمل معاهدةبرلين على حل الخلافات بين الدول الأوروبية الكبرى حلا حاسما ولقد خرجت روسيا من برلين غاضبة ، حقيقة أنها اقتطعت من الدولة العثمانية بعض أجزائها الأسيوية ، وفرضت عليها غرامة كبيرة ، وأحلت نفوذها في بلغاريا ، إلا أنها ستعمل هي والدولة العثمانية على عرقلة تنفيذ معاهدة برلين . ولقد شعر بذلك ساسة أوروبا منذ اللحظة الأولى وخصوصا في مسألة بلغاريا . كما أن روسيا كانت حانقة على ألمانيا لأنها لم تؤيد روسيا التأييد الكافي الذي انتظرته منها عرفانا بالجميل لروسيا . علاوة على ذلك ، لم تكن العلاقات الروسية ـ النمسوية جيدة ، إذ سيطر الشك المتبادل على العلاقات بين الدولتين ، كما أن أطماعها في البلقان كانت متنافسة ومتضاربة . وكانت النمسا تشكو دائما من دعاية روسيا الصقلبية وأدركت أن تقدم روسيا في البلقان من الأمور الخطيرة على حياة الدولة النمسوية وأنه يجب عليها مقاومتها . وهكذا لم يكد مؤتمر برلين بدأت تظهر الصعوبات في تنفيذ قراراته . ولكن ، رغم ذلك ، ساد السلام في أوروبا فترة طويلة بفضل سياسة بسمارك القائمة على المحافظة على السلام وتفوق ألمانيا في أوروبا ينتهي حتى التحالف الثنائي بين ألمانيا والنمسا (١٨٧٩) .

ساء لروسيا قبل مؤتمر برلين وأثناؤه أن التأييد الألماني لم يكن قويا في جانبها ، بل أحست بأن بسمارك كان يعمل على الانتقاص من مر مركزها ، واستصلاح انجلترا على حسابها

ومما أثار روسيا كذلك موقف بسمارك إزاء النمسا، إذ كانت تعمل على عرقلة نشاط الجامعة الصقلبية في البلقان ، ومساندة المعارضة ضد الروس في رومانيا . وكان بسمارك يعضد النمسا في هذه السياسة حتى يضمن إنشغالها نهائيا عن مسائل ألمانيا ، ولكي يجعل مسألة التحالف بين النمسا وروسيا أمرا مستحيلا . ففي عام ١٨٧٩ وافق بسمارك على احتلال النمسا لصنجق نوقى بازار ، ولم تستطع روسيا اخفاء غضبها لذلك فقامت بمناورات حربية في بولونيا على حدود ألمانيا . وعبر القيصر الروسي في خطاب إلى القيصر الألماني في أغسطس عام 1479 وحذر القيصر الألماني من العواقب الوخيمة التي سوف تترتب على سياسة بسمارك .

أما بسمارك فلم يفكر قط في قطع علاقاته مع روسيا ، وكان يعمل دائما على المحافظة على العلاقات السلمية بين ألمانيا وروسيا . ولكن موقف روسيا أثار مخاوفه ، ورأى نتيجة لذلك ضرورة توطيد علاقته مع النمسا حتى ألمانيا في أوروبا ، واستفاد بسمارك من وجود عناصر مجرية لها نفوذ كبير في فينا. فالكونت أندراشي ، وزير خارجية النمسا ، كان قليل الثقة باتحاد القياصرة الثلاثة وأراد عقد تحالف ثنائي بين ألمانيا والنمسا ضد روسيا . ومما تجدر ملاحظته في هذا المجال أن روسيا قد فاتحت هي الأخرى فرنسا وإيطاليا بخصوص عقد اتفاق فيما بينهما ، الأمر الذي حدا ببسمارك إلى الإسراع في عقد التحالف الثنائي مع النمسا ، ولقد اتخذ بسمارك من موقف روسيا ذريعة لكي يثبت للقيصر الألماني سوء نيات روسيا نحو ألمانيا . ولم تكن موافقة القيصر الألماني سهلة ، فلقد كان حريصا على صداقة زميله الروسي ولكن بسمارك بدأ حملته المدروسة لإظهار الخطر الروسي في ربيع عام ١٨٧٩ . وكانت أول إشارة إلى ذلك عدما نشر في 4 فبراير اتفاقا مع النمسا والمجر تعفي ألمانيا بمقتضاء من اجراء استفتاء في شمال شازفيج ، وكان هذا تحديا للقيصر الروسي الذي طالب مرارا بوجوب إجراء الاستفعاء . واستطاع بسمارك في 17 أكتوبر عام ١٨79 من توقيع معاهدة التحالف بين النمسا والمجر وألمانيا ، وكانت هذه المعاهدة أول خيط في شبكة التحالفات التي قدر لها أن سطى أوربا كلها ؛ وكانت المعاهدة عبارة عن حلف دفاعي بسيط ضد هجوم روسى هى ونصت على ما يلي : أولا : أن تبادر كل من الدولتين المتعاقدين (النمسا وألمانيا) إلى مساعدة الثانية بكامل قواتها إذا ما هاجمتها روسيا.

ثانياً : وفي حالة مهاجمة فرنسا وإيطاليا لإحدى الحليفتين فإن الحليفة الثانية تلتزم جانب الحياد الودي ، فإذا أيدت روسيا الدولة المهاجمة بادرت الدولة الحليفة الثانية المتعاقدة إلى مساعدة حليفتها بكامل قوتها .

وتعنى هذه المعاهدة الدفاعية السرية انه إذا هاجمت روسيا النمسا فإن ألمانيا تساعد الأخيرة ، وإذا هاجمت فرنسا ألمانيا فتقف النمسا على الحياد الودي ، أما إذا ساعدت روسيا فرنسا فإن النمسا تساعد ألمانيا . وكانت مدة المعاهدة خمس سنوات ، وحددت في عامي ١٨٨٣ و ١٩٠٢ واستمرت حتى عام ١٩١٨ عندما هزمت الدولتان في الحرب العالمية الأولى ولقد عملت تلك المعاهدة على تقوية السلم في أوروبا لسنوات كثيرة ، كما ، أنها على وجه اليقين أيضا ، أدخلت ألمانيا وأوروبا كلها في الحرب العالمية الأولى.

اتحاد القياصرة الثلاثة (١٨٨١) :

ولكن روسيا وجدت في التحالف الألماني النمسوى خطرا جديدا موجها إليها ، وأخذت الصحف الروسية تندد بالسياسة الألمانية . ومما ساعد روسيا على تفادى موقف العداء العلني من ألمانيا العلاقة بين قيصري روسيا وألمانيا ، وأخبرالقيصر الألماني صديقه قيصر روسيا بأن هذه المعاهدة ليست إلا أداة دفاعية لضمان السلام في أوروبا ، ورأى القيصر أن من الخير قبول هذا

التفسير بسبب المشاكل التي تعرض لها عرشه ، ولم يفكر في يوم من الأيام قطع علاقاته مع ألمانيا ، لأنها دولة ملكية تعمل على صيانة حقوق الملوك . ومن ناحية أخرى ، لم يكن بسمارك قد تخلى عن روسيا نهائيا ، بل كان يود تجديد عرى الصداقة معها على أن لا يضر ذلك حليفته النمسا ، وكان يعمل دائما على إعادة تدعيم اتحاد القياصرة الثلاثة.

وفى ٢٧ سبتمبر عام ١٨٧٩ ، وقبل التوقيع على التحالف الألماني – النمسوى ، عين سابوروف Saburov سفيراً لروسيا في برلين . وكان سابوروف يحتقر الميل إلى السلاف ويناصر السياسة الدفاعية القائمة على التحالف مع ألمانيا ، وكتب إلى القيصر الروسي يقول : « أن بروسيا الحميمة تضعنا في الموقف الممتاز لنكون القوة الوحيدة في أوروبا التي لا تخشى هجوما والتي يمكنها تقليل ميزانيتها دون ما مخاطرة كما فعل سيدنا أوغسطين بعد حرب القرم » . وفي يناير عام ١٨٨٠ ، عرض سابوروف رسميا على بسمارك إحياء اتحاد القياصرة الثلاثة ولما كان بسمارك بخشى انتقام فرنسا رحب بتلك المبادرة ، وبعد مفاوضات طويلة بين الجانبين استطاع بسمارك أن يقنع النمسا بالاشتراك في تحالف الأباطرة الثلاثة الذي وقع في ١٨ يونيو عام ١٨٨١ . وقد نص هذا التحالف على الشروط التالية :

أولا : في حالة اشتباك أحد الأطراف المتعاقدة السامية في حرب مع دولة عظمى رابعة ، يلتزم الطرفان المتعاقدان الآخران الحياد الودى . ومعنى هذا أنه إذا دخلت ألمانيا في حرب مع فرنسا فإن النمسا وروسيا تبقيان على الحياد ؛ وكذلك إذا دخلت النمسا في حرب مع إيطاليا ، أو روسيا مع انجلترا ، فإن كلا من ألمانيا وروسيا ، أو ألمانيا والنمسا تبقيان على الحياد) .

ثانيا : تحترم الدول المتعاقدة الثلاث حقوق النمسا في مقاطعتي البوسنة والهرسك كما نصت عليها معاهدة برلين (١٨٧٨) .

ثالثاً : تسلم الدول الثلاث بمبدأ إغلاق المضايق (البوسفور والدردنيل) ، ويجب على الدولة العثمانية ألا تشذ هذه القاعدة لمصلحة دولة ما ، على الدول الثلاث أن تخبر الدولة العثمانية بأنها (أي الدولة العثمانية) في حرب مع الدولة التي تمسها للمحالفة فيما إذا أرادت الدولة العثمانية أن تسمح لدولة ما أن تستخدم المضايق في حالة الحرب ضد دولة أخرى عضوة في المحالفة ؛ (أي أن المضايق يجب أن تغلق في وجه كل الدول وإذا أرادت الدولة العثمانية فتح المضايق لانجلترا ضد روسيا ، فإن كلاً من ألمانيا والنمسا ، بالإضافة إلى روسيا ، تكون في حالة – ضد الدولة حرب العثمانية).

وهكذا نجح بسمارك في التوفيق بين مصالح روسيا والنمسا وقسم البلقان إلى منطقتى نفوذ : منطقة روسية في الشمال ، ومنطقة نمسوية في الجنوب . ولم تتشابه كثيرا العصبة الجديدة بعصبة عام ١٨٧٣ ، وكان ذلك آخر مظهر للمقاومة من جانب العناصر المحافظة في أوروبا . وكان اتحاد القياصرة الثلاثة نصرا للروس وربما لبسمارك أيضا ، فقد تحررت ألمانيا من اضطرارها للخيار بين الروسيا والنمسا والمجر في البلقان . وحصلت روسيا على الأمن في البحر الأسود في مقابل وعد باتباع السلوك السلمي الذي دفعها إليه ضعفها الداخلي لتحافظ عليه على آية حال . ولقد أدى اتحاد القياصرة الثلاثة ، الذي كان حلفا للصداقة بطريقة غير مباشرة ، إلى التحالف الثلاثي الذي كان تخالفا ضدها بكل وضوح مع روسيا

التحالف الثلاثي (١٨٨٢) :

رمى بسمارك بشباكه لاقتناص حليف آخر ، وتمكن بدهائه المنقطع النظير من أن يجمع شمل النمسا وإيطاليا في صعيد واحد ، رغم ما كان بينهما من تضارب كبير في المصالح الحيوية

وعلى العموم كانت الرابطة بين إيطاليا وأوروبا الوسطى أقدم الروابط في التاريخ الأوروبي . وكانت إيطاليا القومية أساسا لانتصار ألمانيا القومية. وكان التحالف الإيطالي حاسما في حرب عام ١٨٦٦ ، ولولا إيطاليا لاتحدت فرنسا والنمسا والمجر ضد بسمارك عام ١٨٧٠ . ولكن في مؤتمر برلين تجاهلت الدول الأوروبية مطالب إيطاليا وعوملت على نفس مستوى اليونان والدولة العثمانية وحصلت النمسا والمجر على البوسنة والهرسك ، وانجلترا حصلت على قبرص ، وشجعوا فرنسا على أخذ تونس ، وعاد مندوبو إيطاليا بمفردهم من المؤتمر وأياديهم نظيفة . ودعا ذلك الموقف إلى اتجاه نشاط إيطاليا إلى الشاطي الإفريقي المواجه لها، ونازعت إيطاليا كل خطوة أو مشروع فرنسي في تلك المناطق منازعة عنيفة وكانت فرنسا على يقين بأن ايطاليا تسعى إلى أن يكون لها مركز مساو لمركز فرنسا في تونس ، واحتدم النزاع بين الدولتين وادعت إيطاليا أن وجود فرنسا في تونس فيه تهديد خطير لإيطاليا ومستقبلها .

ولكن فرنسا عزمت على ألا تتواجد دولة أوروبية بجوار الجزائر ، ورأى الفرنسيون في النهاية سرعة التدخل الحربي في تونس ، وكان من أكبر العاملين على تنفيذ ذلك سان فالير ، سفير فرنسا في برلين، الذي بذل جهده لإقناع الحكومة الفرنسية بالتدخل قبل أن تقفز دولة أخرى فتحل محل الفرنسيين في هذه البلاد . فاحتلت قوة فرنسية البلاد ، وفي ١٢ مايو عام ١٨٨١ وقع الباي معاهدة باردو وقبل الحماية الفرنسية صارت إيطاليا لا حول لها ولا قوة ، ونظرت إلى احتلال الفرنسيين لتونس كإذلال جديد لها . ووجدت ايطاليا أن كلا من انجلترا وفرنسا لا يأبه كثيراً للمصالح الإيطالية ، كما وجدت الملكية الإيطالية إزاء الفوضويين والاشتراكيين والجمهوريين الإيطاليين أن الملجأ الحقيقى هو ملكيات أوروبا الوسطى . ورأت إيطاليا ضرورة التضامن مع ألمانيا ، لا سيما عندما أخذ بسمارك يستصلح البابوية ، فخشيت الحكومة الإيطالية أن يقوم حلف بين ألمانيا والبابوية على حساب الوحدة الإيطالية الحديثة ولما قررت الانضمام إلى ألمانيا ذكرها بسمارك أن الطريق لي برلين لابد أن يمر بقينا وعلى إيطاليا أن تحسن علاقاتها بالنمسا . وفي أكتوبر عام ١٨٨١ قام همبرت ، ملك إيطاليا ، بزيارة فينا ، وكان طريقاً طويلا منذ أيام كافور العظيمة وعرض الإيطاليون على النمسا والمجر أمنا متبادلا، وأوضحوا أن فرنسا تهددهم ، ولكن الهدف الحقيقي من داخليا ، لكى يصونوا الملكية من تغيير مفاجئ يقوم به الجمهوريون ، أو من تدخل الدول الأجنبية لإعادة سلطة البابا الزمنية . ولكن هذه الزيارة لم تؤد إلى النتيجة المرجوة .

ذلك أن في فبراير عام ١٨٨٢ أحيا بسمارك المفاوضات مرة أخرى ، والسبب في "جمبتا Gambetta " الوطني الراديكالي الكبير قد أصبح رئيسا للوزراء في فرنسا للمرة الأخيرة (نوفمبر عام ١٨٨١) ، وود في نهاية الأمر أن يتحالف . الروسيا وانجلترا ، كما ود أكثر أن يتصالح مع إيطاليا ، وانتوى أن : الأمور ثقل وزن ألمانيا وتجعل تسوية مسألة الألزاس واللورين بالمفاوضات أمرا ميسورا . ولم ينزعج بسمارك من هذه البادرة ، فقد تمنى شخصيا بطريقة غامضة أن يتصالح مع فرنسا ، بيد أن وصول جمبتا للحكم كان له تأثير ملحوظ على سياسة روسيا التي سعت في هذا الوقت إلى التحالف مع فرنسا حقيقة أن جمبتا قد سقط ولم يتحقق أمل الروسيا في تنفيذ تلك السياسة ، ولكن موقف روسيا هذا هز إيمان بسمارك في سياسة المحافظين الروس . وفي ٢٨ فبراير حث بسمارك النمسا على إحياء المفاوضات مع إيطاليا ، وأسفرت المفاوضات الثنائية : وإيطاليا عن مخالفة ثلاثية اشتركت فيها ألمانيا ووقعت في ٢٠ مايو عام ١٨٨٢ تنهى هذه بين النمسا وقد نصت معاهدة التحالف الثلاثي على المواد التالية المادة الأولى : تعد الأطراف المتعاقدة السامية بعضها البعض بالصداقة ، وبعدم الدخول في أي تحالف أو التزام موجه ضد أي وتتعهد الدول المتحالفة بتبادل الآراء حول المسائل السياسية

والاقتصادية ذات الصبغة العامة ، كما تتعهد أيضا بتأييد بعضها البعض في نطاق مصالحهم الخاصة .

كان من جانب تثير المادة الثانية : في حالة تعرض إيطاليا للهجوم لأي سبب فرنسا دون أن تثير (إيطاليا) أي استفزاز ، فإن الطرفين الأخيرين المتعاقدين سيضطران إلى تقديم العون والمساعدة بكل قواها للطرف الذي يهاجم . وينطبق هذا الالتزام نفسه على إيطاليا في حالة هجوم من جانب فرنسا ضد ألمانيا دون أن أي استفزاز مباشر.

المادة الثالثة : إذا ما حدث وهوجم طرف أو طرفان من الأطراف السامية المتعاقدة دون ما استفزاز مباشر من جانبها ، وإذا ما وجدت نفسها وقد انخرطت في حرب مع دولة أو أكثر من الدول العظمى لم توقع على المعاهدة الحالية ، فإن هناك ما يبرر قيام كل الأطراف المتعاقدة السامية بالحرب في وقت واحد .

المادة الرابعة : إذا ما هددت دولة عظمى غير موقعة على المعاهدة الحالية سلامة الدول السامية المتعاقدة ، وإذا ما وجدت الدول المهددة نفسها على هذا النحو مدفوعة إلى شن الحرب ضد تلك الدولة ، فإن الطرفين الآخريين يلتزمان بالحياد المشوب بالعطف بجانب حليفتهما ، وتحتفظ كل منهما بحقها في الاشتراك في الحرب إذا ما رأت أنه من المناسب جعلها قضية عامة مع – حليفتها . المادة الخامسة : إذا ما برز أي تهديد لسلم أحد الأطراف المتعاقدة في الأحوال المنصوص عليها في المواد السالفة الذكر ، فإن الأطراف المتعاقدة السامية تجتمع مع بعضها البعض في الوقت المناسب حول موضوع الاجراءات العسكرية المطلوبة لأجل تعاونهما النهائي . وتتعهد أنه الآن فصاعدا ، وفي كافة الأحوال وفي حالة اشتراكهما في الحرب معا ، بأنها لن تعقد هدنة أو صلحا أومعاهدة إلا بالاتفاق المتبادل.

وكانت مدة المعاهدة خمس سنوات قابلة للتجديد ، وكانت معاهدة دفاعية بحتة غايتها المحافظة على السلم في أوروبا . وفي الظاهر ربط هذا التحالف وسط أوروبا معا وأحيا الإمبراطورية الرومانية المقدسة على أوسع نطاق يتمشى مع السياسة الخارجية . أما من الناحية العملية ، فقد أيد التحالف فقط الملكية الإيطالية ، وضمن حياد إيطاليا في حالة نشوب حرب نمسوية مجرية ضد الروسيا . وقد وعدت ألمانيا بالدفاع عن إيطاليا ضد فرنسا ، ولما كانت المساعدة الإيطالية لا قيمة لها ، فلم تحصل ألمانيا إذا على المقابل ، وفي الواقع كان بسمارك يعلم أن الفرنسيين لا ينوون الهجوم على ايطاليا ، ولهذا السبب فلم يعتبر أن الالتزام يشكل عبئا ، كما علم بذلك الإيطاليون أيضا وكانت حاجتهم الحقيقية هي الاعتراف بهم كدولة عظمى لا حمايتهم من فرنسا ، ولقد أعطاهم التحالف الثلاثي هذا الأمر .

وعلى أية حال ، تقوت المحالفات التي قام بها بسمارك بإتفاقيتين آخريين قامت بهما النمسا الصرب ورومانيا ، ففي عام ١٨٨١ وقعت النمسا معاهدة الصرب ، وعدت بموجبها الصرب بمساعدة العائلة المالكة هناك ، وأن تستخدم نفوذها بين الدول الأخرى لتأييد مصالح الصرب ومن ناحية أخرى ، وعدت الصرب النمسا بعدم عقد معاهدة سياسية مع دولة أخرى دون تفاهم سابق النمسا . وفي عام ١٨٨٣ عقدت النمسا معاهدة مع رومانيا ، التي أجبرت على التنازل عن جزء من بسارابيا إلى الروسيا في معاهدة برلين ؛ وتعهدت النمسا بمقتضى هذه المعاهدة بمساعدة رومانيا إذا هوجمت من قبل دولة ثالثة دون استفزاز من جانبها ، كما يجب على رومانيا التفاهم مع النمسا إذا هوجمت الأخيرة في جزء من أراضيها المتاخمة لرومانيا وقد انضمت ألمانيا إلى هذا التحالف ، أما إيطاليا فقد انضمت إليه عام ١٨٨٨ . وجددت المعاهدة إلى عام ١٩١٣ وهكذا أصبحت النمسا في مركز قوى في البلقان .

تجديد التحالف الثلاثي (١٨٨٧) :

بعد مؤتمر برلين لم تستقر الأحوال في البلقان ، وكانت الروسيا غير راضية عن تقسيم بلغاريا ، ولكنها حاولت على الرغم من ذلك الاستفادة من شروط معاهدة برلين التي تقضى باحتلال الروس بلغاريا أشهراً معدودات . واختار القيصر بموافقة الدول أحد أقربائه وهو اسكندر أمير باتنبرج | الألماني للعرش البلغاري . ورغم إخلاء الروس لبلغاريا ، الا أنهم ظلوا يحتلون معظم الوظائف المهمة ، مؤملين أن يظلوا أصحاب النفوذ الأعلى فيها . وفي بلغاريا الجنوبية (الروملي الشرقية) ، التي تركت تحت إشراف الباب العالي ، عمل المندوب الروسي الذي كان يحكمها على إثارة الشعور ضد الباب العالى ، وعلى إيجاد نظم مماثلة لنظم بلغاريا الشمالية لتوحيد بلغاريا . ولكن البلغاريين كانوا يعملون على الاستقلال عن كل من الدولة العثمانية وروسيا ؛ وحقد البلغاريون على الروس لاحتلالهم المناصب المهمة في الدولة . وفي ذلك الوقت أعلن بسمارك أنه ليس لألمانيا مصالح في بلغاريا وأن مصلحتها هي إقامة علاقات السلام مع روسيا ، وكان يرى ألا تقحم النمسا نفسها في مسائل بلغاريا ، وأن تترك الروسيا تفعل ما تشاء في بلغاريا ، وكان دائما قلقاً لاضطراب العلاقات الروسية ـ النمسوية ، لأن

النمسا ربما كانت تطمع في أن يحل نفوذها محل الروس في بلغاريا . أما الروسيا فكانت ترى أنه إذا انضمت البلغاريتان فينبغي أن يكون ذلك عن طريق الروسيا لا عن طريق باتنبرج . وفي عام 1885 قامت الثورة في بلغاريا الجنوبية (الروملي الشرقية) وطرد الحاكم العثماني ، واضطر باتنبرج إلى قبول التاج بعد تردد . وغضبت روسيا وطلبت من الدولة العثمانية عقد مؤتمر دولي في الأستانة للنظر في هذه المسألة ، ولكن الصرب استعدت لاحتلال مقدونيا وإعادة التوازن في البلقان ، وطلبت من النمسا تأييدها . وإزاء تردد النمسا ، أعلنت الصرب الحرب على بلغاريا ، وبعد هزيمة الصرب أرسلت النمسا إلى بلغاريا تطلب وقف الحرب وإلا فإنها ستساعد الصرب ، وفعلا عقدت الهدنة بين الطرفين في ديسمبر عام 1885 . أما بالنسبة لبلغاريا ، فقد اتفق باتنبرج مع العثمانيين على ضم الروملي على أن تعين الدولة « الأمير البلغاري حاكما على الروملي الشرقية » ، وتم تحقيق ذلك في 8 فبراير عام ١٨٨٦ لمدة خمس سنوات . ولكن روسيا عملت على طرد باتنبرج من العرش البلغاري ، وأجبروه على التنازل عنه ، وفرض القيصر على بلغاريا أميراً يوافق عليه هو . واختار البلغاريون أميراً دانمركيا فرفض القيصر ، وتقرر عقد مجلس وطني في بلغاريا لتقرير من يحكم البلاد ، غير أن روسيا أعلنت عدم استطاعتها الاعتراف بهذه الخطة ولا بقرارات المجلس ؛ وعندما انتخب المجلس أميراً دانمركيا قطعت الروسيا علاقاتها السياسية ببلغاريا .

وأعلنت النمسا في ذلك الوقت أنها لا تسمح بتغيير الوضع الراهن في البلقان مما أدى إلى تكدير العلاقات الروسية ـ النمسوية بدرجة أعلن معها السفير الروسي في برلين « بأنه من الضروري لنا أن نعمل على اختفاء النمسا من خريطة أوروبا » . وأصبح موقف بسمارك حرجا للغاية ، إذ قال الروس أنه لولا تأييد ألمانيا لما استطاعت النمسا أن تتحدث بهذه اللغة . وكان بسمارك حريصاً على عدم اصطدام المصالح النمسوية ـ الروسية في البلقان ، وعلى المحافظة على اتحاد الأباطرة الثلاثة ؛ وفي نفس الوقت أعلن أنه سيقف بجانب النمسا إذا تهدد مركزها كقوة عالمية . لكنه ، من ناحية أخرى ، قال بأنه لا يعارض أي خطوة تخطوها الروسيا في بلغاريا ما عدا الاحتلال ، وأنه لا يعارض في أن تشرف الروسيا على المضايق . ومما دفع بسمارك إلى اتباع هذه السياسة هو علاقاته السيئة مع فرنسا في عام ١٨٨٦ ، ففرنسا كانت مستعدة للحرب إذا ما قامت بين ألمانيا والروسيا ، فلقد قوى مركز الملكيين في البرلمان الفرنسي وعين بولنجر وزيرا للحربية ، وأعلنت فرنسا أن سياستها ستتركز في أوروبا .

وفي الواقع كانت الأوضاع في فرنسا مثيرة للقلق فلقد شعرت فرنسا بعزلتها السياسية منذ معاهدة فرانكفورت ، ونتيجة لمسألتي تونس ومصر ، وبعد توقيع التحالف الثلاثي . فبالنسبة لمصر أعلنت انجلترا أنها لن تبقى فيها بعد استقرار النظام في البلاد ، ولكن مرت سنوات ولم تنفذ انجلترا وعدها ، ورفضت مناقشة فرنسا في موضوع الجلاء كما أن العلاقات الفرنسية ـ الإيطالية لم تكن أسعد حالا بسبب احتلال فرنسا لتونس ، وعمل ساسة فرنسا حينئذ على إيجاد وفاق فرنسي - روسى . ومنذ أن تولى بولنجر منصب وزير الحربية ، أصبح رمز المطالبة بالثأر والانتقام ، ومحرر الألزاس واللورين ، ومصدر فزع ألمانيا وأمل فرنسا . ولم يشعر بسمارك بالارتياح إزاء موقف فرنسا ، خصوصا وأن بولنجر اهتم بالجيش وإصلاحه ، ولقد خشى بسمارك أن تغتر فرنسا فتعلن الحرب ، وإزداد الموقف خطورة بعد التطورات السابقة التي حدثت في بلغاريا ، واستياء الروس من سياسة النمسا واعتقادهم بأن ألمانيا تعضدها ، وهنا أصبح تخالف فرنسا مع روسيا أمرا محتمل الوقوع في عام ١٨٨٦

وعلى أثر ذلك تقدم بسمارك بلائحة إلى الرايخ الألماني في ٢٥ نوفمبر عام ١٨٨٦ يذكر فيها نية الحكومة في تقوية الجيش وتسليحه ، وخاصة لأن اتحاد القياصرة الثلاثة أصابه الفتور ، وأن روسيا تعطف على فرنسا التي ظهر فيها الجنرال بولنجر بطل الانتقام الفرنسي من ألمانيا . وبدأ بسمارك يهتم بتجديد التحالف الثلاثي الذي كانت مدته على وشك الانتهاء ، وذلك لبناء سد منيع في وجه التقارب الروسي – الفرنسي وكانت النتيجة المباشرة هي تجديد المخالفة التي كانت ستنتهي في مايو ١٨٨٧ بين إيطاليا والنمسا ، ولكن ايطاليا لم ترغب في تجديد المحالفة الأولى بحذافيرها ، وإنما رغبت في إدخال بعض التعديلات في قسم من موادها .

ولما كان الموقف الدولي حرجا ، اضطر بسمارك إلى قبول التعديلات التي اشتملت على تجديد المحالفة القديمة كما هي ؛ عقد معاهدة جديدة بين ألمانيا وإيطاليا ؛ وعقد معاهدة جديدة بين النمسا وإيطاليا ؛ ووقعت المعاهدات في برلين في ٢٢ فبراير عام ١٨٨٧ وقد نصت المادة الثالثة من المعاهدة الألمانية الإيطالية على أنه « إذا حدث أن أرادت فرنسا بسط سيطرتها أو فرض حمايتها على الأراضي في شمال أفريقيا كطرابلس أو تونس أو مراكش ، فإن للحكومة الإيطالية الحق ، كى تحافظ على وضعها في البحر المتوسط ، أن تقوم بحركات في شمال أفريقيا أو أن تتخذ إجراءات عسكرية في الأراضي الفرنسية في أوروبا . إن الحالة الحربية التي تنشأ من جراء ذلك بين فرنسا وإيطاليا تلزم الدولتين الحليفتين (ألمانيا وإيطاليا) التشاور فيما بينهما بطلب من إيطاليا لأجل اتخاذ المقاييس العسكرية كما لو كانت الدولتان في تفاهم سابق بينهما .

وجاء في المادة الرابعة من نفس المعاهدة أنه « إذا دارت الدائرة على فرنسا من جراء الحرب التي تقوم بها ألمانيا وإيطاليا بصورة مشتركة ضدها ، وأرادت إيطاليا الضمان الإقليمي من فرنسا لأجل المحافظة على حدود المملكة ولأجل حماية أقاليمها البحرية ، وللمحافظة على سلامة البلاد واستقرارها والسلام الأوروبي ، فيجب على ، ألمانيا أن لا تقدم عوائق بشأن هذه المطالب ، وإذا اقتضت الحاجة ، أن تقدم ألمانيا التسهيلات اللازمة لأجل الحصول على هذه المطالب من فرنسا »

أما المادة الأولى من المعاهدة الإيطالية ـ النمسوية فقد نصت على ربط الدولتين بالمحافظة على الوضع الراهن في الشرق ، وأضافت « إذا كانت المحافظة على الوضع الراهن صعبة في البلقان أو في بحر ايجة أو في سواحل الدولة العثمانية وجزر الأدرياتيك ، وإذا أرادت دولة ثالثة ، أو أن النمسا أو إيطاليا وجدت أنها مضطرة إلى تعديل هذا الوضع باحتلال مؤقت أو دائم ، يجب أن يكون هذا الاحتلال نتيجة لاتفاق سابق بين الدولتين على أساس التعويض المتبادل لكل جديدة بين

ألمانيا وإيطاليا ؛ وعقد معاهدة جديدة بين النمسا وإيطاليا ؛ ووقعت المعاهدات في برلين في ٢٢ فبراير عام ١٨٨٧ وقد نصت المادة الثالثة من المعاهدة الألمانية الإيطالية على أنه « إذا حدث أن أرادت فرنسا بسط سيطرتها أو فرض حمايتها على الأراضي في شمال أفريقيا كطرابلس أو تونس أو مراكش ، فإن للحكومة الإيطالية الحق ، كى تحافظ على وضعها في البحر المتوسط ، أن تقوم بحركات في شمال أفريقيا أو أن تتخذ إجراءات عسكرية في الأراضي الفرنسية في أوروبا . إن الحالة الحربية التي : تنشأ من جراء ذلك بين فرنسا وإيطاليا تلزم الدولتين الحليفتين (ألمانيا وإيطاليا) التشاور فيما بينهما بطلب من إيطاليا لأجل اتخاذ المقاييس العسكرية كما لو كانت الدولتان في تفاهم سابق بينهما .

وجاء في المادة الرابعة من نفس المعاهدة أنه « إذا دارت الدائرة على فرنسا من جراء الحرب التي تقوم بها ألمانيا وإيطاليا بصورة مشتركة ضدها ، وأرادت إيطاليا الضمان الإقليمي من فرنسا لأجل المحافظة على حدود المملكة ولأجل حماية أقاليمها البحرية ، وللمحافظة على سلامة البلاد واستقرارها والسلام الأوروبي ، فيجب على ، ألمانيا أن لا تقدم عوائق بشأن هذه المطالب ، وإذا اقتضت الحاجة ، أن تقدم ألمانيا التسهيلات اللازمة لأجل الحصول على هذه المطالب من فرنسا »

أما المادة الأولى من المعاهدة الإيطالية ـ النمسوية فقد نصت على ربط الدولتين بالمحافظة على الوضع الراهن في الشرق ، وأضافت : « إذا كانت المحافظة على الوضع الراهن صعبة في البلقان أو في بحر ايجـة أو في سواحل الدولة العثمانية وجزر الأدرياتيك ، وإذا أرادت دولة ثالثة ، أو أن النمسا أو إيطاليا وجدت أنها مضطرة إلى تعديل هذا الوضع باحتلال مؤقت أو دائم ، يجب أن يكون هذا الاحتلال نتيجة لاتفاق سابق بين الدولتين على أساس التعويض المتبادل لكل فائدة تجنيها هاتين الدولتين ، سواء أكانت الفائدة إقليمية أو غيرها .. وأن ترضى كل منهما الأخرى من ناحية المصالح والمطالب التي تدعيها كل منهما » . ولقد رفعت هذه المعاهدة قيمة إيطاليا ومن مركزها في البحر المتوسط وفي البلقان . وعلى العموم أصبح لهذا التحالف صبغة هجومية ، واعترف بحق إيطاليا في تأسيس إمبراطورية استعمارية ؛ كما اعترف بحقها في نيس وكورسيكا وتونس كضمانات في حالة حرب ناجحة مع فرنسا كذلك اعترف بحق إيطاليا في تعويض أرضى في حالة قيام حرب ألمانية فرنسية . ولقد وافق بسمارك على إعطاء كل تلك الامتيازات لإيطالي لأنه كما قال : « إذا أرادت دولة التخلص من شرط معاهدة لن تجد صعوبة كبيرة في تفسيره التفسير الملائم » . ومما تجدر ملاحظته أن المادتين الأخيرتين في المعاهدة غامضتان.

معاهدة الضمان الألماني ـ الروسي (١٨٨٧) :

في اليوم الذي تم فيه تجديد التحالف الثلاثي كتبت صحيفة نورد Nord الروسية تقول أن روسيا سترقب الأحداث على الراين باهتمام ، وأن مصلحتها تحتم عليهـا ألا تقف موقف الحياد كما حدث في عام ١٨٧٠ عند وقوع الحرب الفرنسية البروسية وأن روسيا لن تسمح بأن تصبح فرنسا دولة ضعيفة . وقد ساعد تسرب الأخبار عن تجديد التحالف الثلاثي على التقارب بين روسيا وفرنسا . وفي تلك الأثناء أيضا وقع حادث تافه على الحدود الفرنسية الألمانية مما دفع ببولنجر إلى حشد قواته على الحدود والتهديد بالحرب ، ولكن الوزارة الفرنسية سقطت وسر بسمارك لخروج بولنجر ، وبدأ يعمل على استصلاح روسيا وتوجيه اهتمامها إلى الشرق وإلى المناطق التي تحتاج فيها إلى تأييد ألمانيا . وفي ذلك الوقت تغيرت وجهة نظر السياسة الروسية تجاه ألمانيا ، وأرسل القيصر الروسى شوفالوف إلى برلين بعد أن عرضت فكرة عقد اتفاق

روسى –ألماني على سفير ألمانيا في بطرسبرج ووجدت ترحيبا منه . واشتملت التعليمات التي أصدرها القيصر إلى شوفالوف على الموضوعات التالية :

1- ضمان السلام اللازم لنمو قوى روسيا الحربية والبحرية ولحماية روسيا من المخالفات الأوروبية .

٢ ـ العمل على إبقاء الوضع الراهن في البلقان والاعتراف بتفوق النفوذ الروسي في بلغاريا

3 ـ إغلاق المضايق

وكانت روسيا ترغب في تحقيق ذلك عن طريق التأييد الألماني وقد اعترضت فكرة التحالف الروسي ـ الألماني عدة صعوبات ، فبسمارك لم يكن على استعداد لإخراج النمسا من التحالف ؛ وعلى الرغم من ذلك بدأت المفاوضات في ١١ مايو ١٨٨٧ وانتهت في 18 من نفس الشهر ، واتفقت الدولتان (ألمانيا وروسيا) على توقيع معاهدة سرية بينهما سميت بمعاهدة الضمان الروسي ـ الألماني . وقد نصت المادة الأولى على أنه « إذا هوجمت إحدى الدولتين المتعاقدتين من قبل دولة ثالثة تلتزم الدولة الأخرى المتعاقدة جانب الحياد الودى . إن هذا النص غير نافذ المفعول في حالة هجوم إحدى الدولتين المتعاقدتين على النمسا أو فرنسا » ، ونصت المواد الأخرى على ما يلي

1 ـ اعتراف ألمانيا بالحقوق لروسيا في البلقان ، وبحق الروس في تفوق نفوذهم في بلغاريا.

٢ ـ تتعهد الدولتان بالعمل على المحافظة على الوضع الراهن في البلقان.

3 ـ تتعهد الدولتان بفرض رغبتهما على الدولة العثمانية بضرورة إغلاق المضايق في وجه أعدائهما.

وهكذا ضمنت ألمانيا حياد روسيا في حالة إعتداء فرنسا عليها ، كما أن روسيا ضمنت حياد ألمانيا إذا ما هاجمتها النمسا ، ولم يكن بسمارك مضطرا لمساعدة النمسا في حالة اعتدائها على روسيا كما أنه لم يكن ينوى الهجوم على فرنسا لأن ألمانيا لا تنوى الحرب مع فرنسا ولقد اعترف بسمارك بمصالح روسيا في البلقان ، وأيد روسيا في الإجراءات التي تتخذها بشأن المضايق (البوسفور والدردنيل) وذلك بوقوف ألمانيا على الحياد وتأييد روسيا دبلوماسيا ، ولكن بسمارك كان يعلم أن بنود معاهدة التحالف الثلاثي بخصوص البحر المتوسط والبلقان كانت قوية إلى درجة تمنع روسيا من تحقيق ما تريده بشأن المضايق حتى إذا وقفت ألمانيا على الحياد . وكانت مدة المعاهدة ثلاث سنوات وقد وقعت هذه المعاهدة في عام ١٨٩٦ ، واتهم بسمارك بأنه خان النمسا في هذه المعاهدة ، لكن الأمر غير ذلك فلقد أعلن بسمارك بأنه غير ميال لتأييد سياسة النمسا البلقانية أو الدخول في حرب من أجلها . ولقد جاءت هذه المعاهدة وفقا لرغبته في تقسيم البلقان إلى منطقتى نفوذ شرقية في بلغاريا والأستانة والمضايق لروسيا وغربية للنمسا . وبتوقيع معاهدة الضمان أتم بسمارك سياسة التحالفات ، وبذلك ضمن سلامة ألمانيا نظريا على الأقل . وعمل بسمارك على عدم معارضة السياسة الروسية في بلغاريا ، وأيد اتحاد دول البحر المتوسط ليضع حدا لمطامع الروسيا ، ولكي يمنع تحالفها (أي الروسيا) مع فرنسا ثانيا .

التحالفات الدولية بعد سقوط بسمارك (1890-1914) :

في عام ١٨٨٨ توفى الإمبراطور الألماني وليم الأول وخلفه حفيده وليم الثاني على العرش ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الخلاف بين الإمبراطور وبسمارك . وكان وليم الثاني رجلا ذكيا ونشيطا ، وعلى الرغم من إعجابه ببسمارك إلا أنه لم يرغب أن يقف مكتوف الأيدي بينما يحكم

بسمارك حكما مطلقا ، وكان بسماك قد بلغ سن الشيخوخة ، وأصبح متمسكا بآرائه الأمر الذي أدى إلى الصدام بين الطرفين وانتهز أعداء بسمارك الفرصة لتوسيع الخلاف بينهما ، فعندما حل موعد انتهاء معاهدة الضمان الألماني ـ الروسي في عام ١٨٩٠ ، والتي كان بسمارك قد وعد القيصر الروسي بتجديدها ، رفض وليم الثاني ذلك ، واقتنع بآراء خصومه بأن مواد معاهدة الضمان تخالف مواد المعاهدة الثنائية بين النمسا وألمانيا في عام 1879 ، وحينئذ استقال بسمارك ، ولم تجدد ألمانيا المعاهدة على الرغم من رغبة روسيا في ذلك ، ولذلك اضطرت روسيا إلى البحث عن حليفة أخرى ، وارتمت في أحضان فرنسا.

وترجع أهميـة عـام ١٨٩٠ في التاريخ الأوروبي إلى أنها سنة فاصلة في الفترة ما بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ ، فلقد تخلى بسمارك في تلك السنة ، كما رأينا، عن إدارة أمور السياسة الأوروبية ، ولقد أعلن سولزبرى أن سقوط بسمارك «مصيبة هائلة) وكانت برلين مركز السياسة الدولية الأوروبية ، وفي الواقع كان بسمارك دعامة السلام الأوروبي ، ولكن سقوطه كان يعني تغيير السياسة الخارجية الألمانية ، فرفضت ألمانيا تجديد معاهدة الضمان مع روسيا ، بينما كانت سياسة بسمارك بناء التحالف الثلاثي وتجديده وحفظ العلاقات الودية مع روسيا ، والعمل على كسب صداقة انجلترا ، وإبقاء فرنسا في عزلة سياسية حتى لا تفكر جديا في حرب مع ألمانيا .

التحالف الثنائي بين فرنسا وروسيا (١٨٩١ ـ ١٨٩٤) :

أعطى عدم تجديد معاهدة الضمان ، ورفض ألمانيا إعطاء روسيـا وعـدا مكتوبا ببقائها على سياستها القديمة إزاء روسيا ، أعطى الدولة الأخيرة حرية في العمل . فلقد شعرت روسيا بعزلتها ، وعرفت أن ألمانيا تريد أن تستبدل بالتحالف الروسي التحالف الإنجليزي ، فأخذت روسيا تبحث عن حلفاءها ولذلك تعاونت مع فرنسا في المسألة المصرية ، وتأكدت روسيا نهائيا من موقف ألمانيا التي حاولت تقوية التحالف الثلاثي وتأييد النمسا ، بل وأطلعت النمسا على معاهدة الضمان التي عقدها بسمارك معها ، وأيدت نهائيا وجهة النظر النمسوية في البلقان ومن ناحية أخرى ، أخذت فرنسا ، بعد سقوط بسمارك ، تلعب دورا إيجابيا في السياسة الأوروبية ، فحاولت إبعاد إيطاليا من التحالف الثلاثي ومن تحالف البـحـر المتوسط ، وتدخلت في أمور الفاتيكان وضـد مـصـالح إيطاليا الاستعمارية . وتعاونت فرنسا مع الروسيا في خلق المشاكل لانجلترا في مصر ، كما احتجتا على المعاهدة الإنجليزية الألمانية التي أعطت الإنجليز الحق في فرض الحماية على زنزبار. وشعرت انجلترا بالقلق إزاء موقف الروسيا وفرنسا من السياسة الإنجليزية في مصر ولذلك عمل سولزبرى على توثيق علاقاته ، وإيطاليا ، وفي نفس الوقت دارت محادثات بينه وبين مارشال (Marshall) ، وزير خارجية ألمانيا ، أظهرت اتفاق آراء الدولتين . وكان لذلك وقع سيئ في كل من فرنسا والروسيا ، لا سيما بعد أن أعلنت الحكومة الانجليزية في البرلمان عن وجود اتفاق بينهما وبين إيطاليا منذ عام ١٨٨٧ .

وكان الرد الطبيعي على ذلك هو التقارب بين فرنسا وروسيا ، و ، وأظهرت فرنسا أنها لا تستطيع إقراض الروسيا إلا إذا عملت الأخيرة على زيادة التقارب منها . وكانت الروسيا في أشد الحاجة إلى مساعدة فرنسا المالية لتنظيم ماليتها ولاستكمال بناء خطوطها الحديدية . وكان الرأي العام الروسي والصحافة الروسية مؤيدة للتحالف ، وهكذا بدأت المفاوضات بين الدولتين وانتهت بعقد التحالف بينهما عام ١٨٩١ . وقد نصت الاتفاقية على ما يلي :

1- تتعهد الدولتان المتعاقدتان التفاوض في كل مسألة من شأنها تهديد السلام العام .

٢ـ إذا حدث تهديد السلم فعلا ، وخاصة في حالة تهديد أحد الطرفين المتعاقدين من قبل الأعداء ، فإنهما يتفقان على الخطط التي تتطلبها أهدافهما .

وهكذا اتفقت الدولتان على أن تساعد كل منهما الأخرى حربيا إذا اعتدت دولة من دول التحالف الثلاثي على إحداهما ، وأن يتناقش أركان – الدولتين في وقت السلم ، وألا تعقد فرنسا أي معاهدة منفردة مع دول التحالف الثلاثي ، وأن تكون المعاهدة سرية . غير أن هذا التحالف كان غامضا وكان الوضع الدولي قلقا خلال عام ١٨٩٣ . فطلب الفرنسيون إكمال الحلف بميثاق ١٨٩٣ عسكرى ، وقد تم ذلك في عام ١٨٩٤ ، وبموجبه تعهدت روسيا بمساعدة . فرنسا بمليون ونصف جندي إذا ما هاجمتها ألمانيا ، كما وعدت فرنسا روسيا بنفس العدد إذا ما هاجمتها النمسا تساعدها ألمانيا . وبذلك تكون ما يسمى بالتحالف الثنائي ، ووطدت دعائم الحلف زيارة القيصر نقولا الثاني لفرنسا عام ١٨٩٤ حيث استقبل بحفاوة بالغة ، ورد مسيو فور رئيس الجمهورية الفرنسية ، له الزيارة في العام التالي.

التحالف الإنجليزي – اليابانى (١٩٠٢) :

تم التوازن بين دول الوفاق الثنائي (فرنسا وروسيا) والتحالف الثلاثي (ألمانيا والنمسا وإيطاليا) بعد عام ١٨٩١ ، واستمر هذا التوازن حتى عام ١٩٠٤ ، إذا انصرفت الدول الأوروبية الكبرى إلى التوسع الاستعمارى خارج القارة الأوروبية وقد سبقت انجلترا غيرها في هذا المضمار واتبعت سياسة الانعزال عن الشئون الأوروبية ، وقد تميزت الفترة الواقعة فيما بين عامي ١٨٩٤ و ١٩٠٤ بثلاثة اتجاهات هامة :

1 ـ تخلى روسيا عن الشؤون الأوروبية واتجاهها إلى الشرق الأقصى بهدف التوسع وبسط النفوذ ، ولم تهتم بالشئون الأوروبية مرة أخرى إلا بعد هزيمتها أمام اليابان عام 1905.

٢ ـ اتسع المجال أمام ألمانيا للتحكم في الشئون الأوروبية والدولية ، واستغلت في معظم الأحيان التنافس الاستعماري بين انجلترا وفرنسا وروسيا للحصول على الأراضي ، وانتهزت الفرص لمنافسة انجلترا بشتى الطرق أوالاشتراك في التنافس الاستعماري والاستيلاء على بعض الممتلكات الأفريقية .

3 ـ ظلت انجلترا منعزلة عن التحالفات الأوروبية ، وقد شعرت انجلترا بمنافسة ألمانيا لها لا سيما في مجال الاستعمار ، ولذلك بدأت تتفاوض مع روسيا وألمانيا لإقامة تقارب معهما .

ومن العوامل التي شجعت على التقارب الإنجليزي الألماني مضايقات فرنسا المتتالية للاحتلال الإنجليزي لمصر ، مما جعل انجلترا في حاجة إلى تأييد قناصل دول التحالف الثلاثي لمشروعاتها في توطيد الاحتلال واستمراره . ولما شعرت انجلترا بخطورة عزلتها ، فاتح چوزيف تشمبرلين ، وزير المستعمرات ، السفير الألماني في لندن عام ١٨٨٩ في موضوع إقامة تحالف إنجليزي ـ ألماني ولكن بيلوف (Bülow) ، مستشار ألمانيا ، لم يكن متحمساً لذلك التحالف خوفاً من أن تستخدمه انجلترا لأغراضها الخاصة دفاعاً عن مصالحها . وفي عام و زار القيصر الألماني انجلترا ، وفاوض تشمبرلين بيلوف في الموضوع ، غير أن قيام حرب البوير * (١٨٩٩ – ١٩٠٢) .وعطف ألمانيا على البوير زاد من حدة الخلاف بين انجلترا وألمانيا . وعندما زار القيصر انجلترا للمرة الثانية.

في عام ١٩٠١ استؤنفت المفاوضات ، وكانت ألمانيا راغبة في الحلف ،ولكنها أرادت ضم انجلترا إلى التحالف الثلاثي . ولم توافق انجلترا لأن ذلك قد يجرها إلى الحرب ضد روسيا

بسبب اختلاف المصالح بين روسيا والنمسا . وانتهت المفاوضات بالفشل ، وبدأت انجلترا تبحث عن حليف ضد الدول الاستعمارية التي كانت تنافسها في الأسواق كألمانيا وفرنسا وروسيا ، وكانت أولى هذه الدول هي اليابان . وشعرت انجلترا بأهمية هذا الحليف بسبب الدور الذي لعبته روسيا بعد الحرب الصينية ـ اليابانية عام ١٨٩٥ ، فقد نصت معاهدة شيمونسكي التي وقعت بين اليابان والصين عام ١٨٩٥ على تنازل الصين لليابان عن كوريا وفورموزا وشبه جزيرة لياوتنج بما فيها ميناء بورت آرثر . وقد أغضب روسيا وألمانيا وفرنسا استيلاء اليابان على هذا الميناء ، وأرسلت مذكرة شديدة اللهجة تطلب فيها من اليابان ردها ، واضطرت اليابان إلى الموافقة على مذكرة الدول ، وسحبت قواتها من شبه جزيرة لياوتنج وهي ناقمة لاسيما من روسيا خصمها المباشر التي احتلت ميناء بورت آرثر . وكان استيلاء روسيا على هذا الميناء ، من وجهه النظر الإنجليزية ، ـ تغييرا لتوازن القوى ويهدد الإمبراطورية البريطانية ولما كان الخطر الأكبر الذي يهدد انجلترا يكمن في النشاط الروسي في الشرق الأقصى ، اتجه الإنجليز إلى التفاهم مع اليابان على مواجهة هذا الخطر الروسي المشترك . وكانت اليابان في حاجة إلى كسب انجلترا بالذات حتى تعد نفسها لضرب روسيا وهي مطمئنة إلى أن أكبر دولة بحرية أوروبية لا تعرقل مشروعاتها العسكرية ، وإلى أن آية دولة أخرى لن تدخل الحرب إلى جانب روسيا . ولذلك لم تكن المفاوضات بين الطرفين معقدة ، وتوصلا إلى ما عرف بالوفاق الودي الذي وقع في 30 يناير عام ١٩٠٢ ، ويعتبر هذا الوفاق النهاية الفعلية لعزلة انجلترا . ونص على مايلي :

1 ـ اعتراف انجلترا بمصالح اليابان في كوريا .

2 ـ اعتراف اليابان بمصالح انجلترا في الهند

3- اتفقت الدولتان على أنه إذا حدثت حرب بين إحداهما ودولة ثالثة فإن الأخرى تلزم جانب الحياد ، أما إذا دخلت الحرب ضدها دولة رابعة فإن الدولة المتعاقدة الأخرى تبادر إلى مساعدة حليفتها ، ومعنى هذا التحالف أنه إذا وقعت الحرب بين اليابان وروسيا فإن انجلترا تلزم جانب الحياد ، أما إذا دخلت فرنسا إلى جانب حليفتها الروسيا ضد اليابان فإن انجلترا تساعد اليابان . وإذا نشبت حرب بين انجلترا وروسيا فإن اليابان تلزم جانب الحياد ، وإذا دخلت فرنسا الحرب إلى جانب روسيا ، فإن اليابان تساعد انجلترا . وعلى هذا الأساس سحبت انجلترا أسطولها في الشرق الأقصى إلى بحر الشمال للدفاع عن سواحلها والواقع أن الحالة الأولى هي التي حدثت عندما اندلعت الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ – ١٩٠٥) ، حيث انحصرت الحرب بين اليابان وروسيا ولزمت انجلترا وفرنسا جانب الحياد ولم تتسع الحرب ، وكانت مدة هذا التحالف خمس سنوات وفي الحرب الروسية ـ اليابانية استولت اليابان على بورت آرثر ، وفي معاهدة بورتسموث التي أعقبت الحرب (١٩٠٦) حصلت اليابان على تفوق كبير في الشرق الأقصى ، واعترفت روسيا بتفوق المصالح الاقتصادية والعسكرية اليابانية في كل من كوريا ومنشوريا ، كما وافقت على نقل حقوق روسيا في شبه جزيرة لياوتنج وبورت آرثر إلى اليابان الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا (١٩٠٤) .

رأت انجلترا جليا خطر سياسة العزلة على مركزها ، وأثار النمو السريع للأسطول الألماني قلقها ومخاوفها . فإن ألمانيا لم تكتف بمزاحمتها في الأسواق الأجنبية ، وفي تملك المستعمرات في مختلف أرجاء العالم ، بل صرح الإمبراطور وليم الثاني عام ١٨٩٧ بأن مستقبل بلاده مرهون بسيطرتها على أمواج البحار ، وأظهر تصميمه القاطع على خلق أسطول عظيم لألمانيا يعزز مكانتها الأولى بين الدول العظمى ، وعاونه في تحقيق مشروعه وزير

بحريته الشهير الأميرال تربتز (Tirpitz) الذي قال عنه المؤرخ لانجر (Langer) : (ربما كان أكفأ شخص ظهر في أية دولة من دول العصر الحديث » . وقام تربتز بوضع مشروع هدفه احترام مركز ألمانيا التجاري والاقتصادي ، كما عمل على استكمال أسلحة الحرب البحرية وخاصة الطوربيد ، وأجاز الرايخشتاغ في عام ١٨٩٧ قانونا بتعزيز الأسطول الألماني وزيادة وحداته وبحارته زيادة كبيرة .

ولقد أعلن بيلوف أن ألمانيا لا تفكر في الاعتداء على انجلترا ، ولكن تأكيدات ألمانيا لم تساعد على محو مخاوف انجلترا ، وذلك للاهتمام الكبير الذي أظهره الإمبراطور بالمسائل البحرية ، ولأن تربتز اهتم بألا يكون لألمانيا بحرية دفاعية فحسب بل وهجومية أيضا . وبدأت انجلترا تزيد من اهتمامها بالمسائل البحرية وذلك بإنشاء قاعدة بحرية كبيرة وبناء أربع سفن حربية كل عام ، والاهتمام بتركيز الأسطول في المياه الإنجليزية . وهكذا زاد القلق في كل من الدولتين بسبب المشروعات البحرية التي تضعها الدولة الأخرى ، وحاولت انجلترا تهدئه خواطر ألمانيا بأن أعلنت بأنها ستخفف قليلا الاهتمام بإنشاء سفن حربية ، وكانت تنتظر أن تقوم ا الحكومة الألمانية بخطوة مماثلة ، ولكن ألمانيا لم تفعل وهكذا قربت العداوة المشتركة لألمانيا بين انجلترا وفرنسا ، فألمانيا أصبحت الدولة الصناعية الفتية التي تنافس انجلترا في الاستعمار ، وهي عدوة فرنسا منذ عام ١٨٧٠ . وأرادت كل من الدولتين (انجلترا وفرنسا) تصفية مصالحهما الاستعمارية لمواجهة العدو المشترك . ووجد الساسة البريطانيون في مليكهم إدوارد السابع وسيلة صالحة للتقرب إلى فرنسا ، فقد كان هذا العاهل يكن حبا شديدا لتلك البلاد التي قضى في ربوعها زمنا من أمتع أيام شبابه ، وبادله الفرنسيون هذا الحب فاغتنم فرصة زيارته لوحدات الأسطول الانجليزي في مياه البحر المتوسط ، وقام في أثناء عودته بزيارة رسمية لباريس عام ١٩٠٣ ، واستقبله الفرنسيون بأعظم مظاهر الترحيب ، ورد رئيس الجمهورية الفرنسية له الزيارة بلندن في العام نفسه ، واستغل ساسة الدولتين هذا التقارب بين شعبيهما للسعى إلى تسوية الخلافات التي تحول دون حسن تفاهمهما.

وفي 8 أبريل عام ١٩٠٤ تمكنت الدولتان من عقد الاتفاق الودى (Entente Cordiale) وتضمن هذا الاتفاق مواد علنية وأخرى سرية ، ونص على ما يلي

1 ـ تسوية المشاكل المتعلقة بمصائد الأسماك في نيوفوندلاند بين انجلترا وفرنسا وتعديل الحدود بين المستعمرات الفرنسية الانجليزية في أفريقيا.

٢ ـ تسوية بعض المشاكل في سيام ومدغشقر وأفريقيا الغربية .

3 ـ اعتراف انجلترا بمصالح فرنسا في مراكش ، واعتراف فرنسا بمصالح انجلترا في مصر.

وأعلنت انجلترا بمقتضى الاتفاق أنها لن تعمل على تغيير مركز مصر السياسي ، وأعلنت فرنسا من جانبها أنها لن تعرقل عمل انجلترا في مصر ، ولن تطلب تحديد أمد الاحتلال الانجليزي . وبهذا الاتفاق ثبت الاحتلال الانجليزي أقدامه في مصر من الناحية الفعلية ، ولم يعد هناك ما يحول دون فرض السيادة البريطانية الكاملة على البلاد سوى ذلك الخيط الشرعي الرفيع الذي كان يربط مصر بالدولة العثمانية . غير أنه لم تمر عشر سنوات أخرى حتى أعلنت انجلترا حمايتها على مصر وأصبح مركزها مضمونا من الناحيتين الفعلية والشرعية وأنهمت هذه التسوية عوامل التنافس بين انجلترا وفرنسا ، ولكنها تختلف عن معاهدات التحالف التي سبقتها من حيث أنها لم تشر إلى التعاون في حالة الحرب، وإنما هي اتفاقية لتسوية المشاكل المعلقة ، ولذلك سميت (بالاتفاق » ولم تسمى « بالتحالف » .

الاتفاق الانجليزي ـ الروسي (١٩٠٧) :

شعرت روسيا بعد هزيمتها أمام اليابان في عام 1905 أنها بحاجة إلى أصدقاء بدلا من إثارة العداوات . وأدركت روسيا أيضا أن الدول التي حالت دون توسعها هي انجلترا والنمسا والمجر وألمانيا . وأصبح مجال التوسع الروسي بعد عام ١٩٠٥ منحصرا في الدولة العثمانية (في اتجاه الأناضول والعراق أو في اتجاه البلقان) وفي إيران . وكانت روسيا تدرك تماما أن انجلترا تعارض فكرة توسعها على حساب الدولة العثمانية خوفا من سيطرتها على المضايق (البوسفور والدردنيل) . كما وقفت النمسا والمجر أمام أي توسع روسي في البلقان ، وبدأ التنافس يتصاعد بينهما هناك منذ عام 1903 ، وهكذا لم يبق أمام روسيا سوى إيران لكي تعمل فيها وتثبت للعالم أن روسيا لا تزال دولة كبرى . ولكن منذ قرن تقريبا وروسيا تواجه مقاومه انجليزية علنية وسرية لمشروعاتها التوسعية في إيران ، ولذلك رأت أن الوسيلة الوحيدة لفتح الطريق أمام مشروعاتها هو التوصل إلى تفاهم مع دول الحلف الثلاثي أو انجلترا . ولما كان أي تفاهم مع ألمانيا يهدد التحالف الروسي ـ الفرنسي ، أصبح التفاهم مع انجلترا أكثر واقعية .

وبعد نكبة روسيا في عام 1905 أخذت انجلترا تقلل من تعنتها ضدها ، وفي الواقع لعبت فرنسا دورا مهما في فتح الطريق أمام التقارب الإنجليزي ـ الروسي . لقد كادت الحرب الروسية ـ اليابانية أن تجر كلاً من انجلترا وفرنسا إلى حرب لا مصلحة لهما فيها ، فكانت فرنسا حليفة لروسيا منذ عام ١٨٩٤ وانجلترا حليفة لليابان منذ عام ١٩٠٢ . ولدفع خطر حرب كهذه حرصت فرنسا على إتمام سلسلة المحالفات بعقد اتفاقية إنجليزية ـ روسية . وبعد هزيمة روسيا في عام 1905 كان من السهل التقرب منها لعقد اتفاقية مع انجلترا ، وفعلا وقعت الاتفاقية أغسطس عام ١٩٠٧ وقد نصت ، بالإضافة إلى التحالف ، على تسوية المشاكل الاستعمارية خارج القارة الأوروبية ولكن بشكل أوسع من تلك التي عقدت بين فرنسا وانجلترا . كما قسمت إيران إلى منطقتى نفوذ : روسية في الشمال ، وانجليزية في الجنوب ، وبقى قسم مستقل في الوسط ، واعترفت روسيا بمصالح انجلترا في الخليج العربي وفي التبت ، ووعدت انجلترا بعد عقد الاتفاقية بتسهيل السبل لفتح المضايق أمام السفن الحربية الروسية ؛ كما أصبحت أفغانستان تحت حماية انجلترا . ومع أن هذه الاتفاقية قد ضمنت مصالح انجلترا أكثر مما ضمنت مصالح روسيا ، فإن الأخيرة علقت عليها الآمال لبلوغ مآربها في البلقان والدولة العثمانية في المستقبل . وقد تم في الوقت نفسه عقد اتفاقية بين روسيا واليابان اعترفت فيها كل من الدولتين بمصالح الأخرى في الصين ومنشوريا . وكذلك عقدت فرنسا واليابان اتفاقية تعترف فيها بأن الصين وحدة لا تتجزأ وبإقرار سياسة الباب المفتوح ؛ وأذاعت كل من انجلترا وأسبانيا وفرنسا وروسيا معا تصريحات بالمحافظة على الوضع الراهن في البحر المتوسط . وبهذا تمت سلسلة متواصلة من المحالفات والاتفاقيات السياسية التي ألفت جبهة خطيرة ضد دول التحالف الثلاثي .

وهكذا أحكم الوفاق الثلاثي Triple Entente بين فرنسا وانجلترا وروسيا الطوق حول ألمانيا . وقد زادت الأزمات الدولية التي حدثت بعد عقد هذا الوفاق من توثيق عراه ، وأهم هذه الأزمات ضم البوسنة والهرسك (في يوغوسلافيا الحالية) إلى النمسا ، وحادثة أغادير ، والحروب البلقانية (١٩١٢ ـ ١٩١٣) .

وقد أدت هذه الأزمات إلى مفاوضات بين أركان حرب انجلترا وفرنسا عام ١٩٠٦، وإلى الاتفاق بينهما في عام ١٩١٢ على أن تسحب انجلترا أسطولها من البحر المتوسط . وبذلك يكون قد تم التعاون البحرى بأن تحافظ انجلترا على سواحل فرنسا بحرا إذا هوجمت من الشمال ، وأن يكون الأسطول الفرنسي مقابل الأسطول النمسوي في البحر المتوسط . وقد حاولت ألمانيا

في عام ١٩١٢ الاتفاق مع انجلترا بخصوص القوة البحرية للدولتين ، ولكن المفاوضات لم تؤد إلى ، نتيجة ، وهكذا انقسمت أوروبا إلى معسكرين كبيرين قبل عام ١٩١٤ ، فبينما كان الهدف الأساسي من التحالفات تجنب الحروب والمحافظة على السلام أصبحت باعثة على التصادم والتنازع وأنذرت بوقوع الحرب.

الفصل الرابع

الأزمات الدولية التي أدت إلى قيام الحرب العالمية الأولى

1914- 1918

أولًا: أزمة ضم البوسنة والهرسك.

ثانيًا: أزمة أغادير.

ثالثًا: الحروب البلقانية.

رابعًا: مصرع ولي عهد النمسا

خامسًا: الدول المشاركة في الحرب العالمية الأولى.

عقب عقد الوفاق الروسي ـ البريطاين بدا واضحاً أن أوروبا تسري نحو مجابهة بني المعسكرين، وأن مجالات المصالحة أصبحت شبه معدومة، وكانت مجالات اختيار الصلابة هي الباقية، وهي سياسة (حافة الحرب) وهي التي ستسيطر على العالم منذ 1908 حتى نشوب الحرب في 1914 .وكانت قوى العالم الأخرى ـ وخصوصاً اليابان والولايات المتحدة الأمريكية تراقب عن كثب تطور الأزمات بني الكتلتني حتى وصلت الأزمات ذروتها نتيجة حادثة من الحوادث التي وقعت كثيراً في أوروبا، ونعني بذلك اغتيال فرديناند ولي عهد النمسا، فكان الأزمة التي أشعلت نريان الحرب العالمية الأولى.

أولًا: أزمة ضم البوسنة والهرسك

كانت امبراطورية النمسا والمجر قد تولت إدارة هذين الإقليمين التابعين للدولة العثمانية وفقاً لمقررات مؤتمر برلين 1878. وكانت حكومة النمسا تتطلع إلى ضم هذين الإقليمين ولأسباب تتعلق بأمنها وسلامة امبراطوريتها في المرتبة الأولى. حيث إن مطالبة قومية من قوميات امبراطورية النمساوالمجر بالاستقلال يعني تفكك هذه الامبراطورية المكونة من العديد من القوميات.

فقد كانت حركة (الجامعة الصربية) تقوى سنة بعد أخرى وكان معنى هذا أن الملايين من الصرب الذين يعيشون تحت حكم امبراطورية النمسا والمجر ـ سيطالبون إن عاجلا أو آجلا بالانضمام إلى بني قوميتهم في مملكة الصرب. وكانت حكومة الصرب حتى 1882 موالية للنمسا حتى وقع انقلاب قضى على الملكية للنمسا ووضع على العرش بطرس قره جورجيفتش في 1903 وبدأت موجة من الدعاية داخل امبراطورية النمسا والمجر نفسها «للصرب الكبرى» الأمر الذي كان يعتبر تهديداً مباشراً لكيان هذه الامبراطورية المتعددة الشعوب.

وكانت هناك دعايات صربية قوية بضم الصربيين الموجودين في ولايتي (البوسنة) و (الهرسك) العثمانيتين إلى الدولة الأم (صربيا). ولكن التطورات في الدولة العثمانية أدت إلى ظروف جديدة في هذه القضية. فقد حدث أن قامت في 1908 ثورة عسكرية ضد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وضد نظام حكمه الإستبدادي الذي أطمع الدول الكبرى في اقتسام بلاد هذه الدولة، وتزعم هذه الثورة رجال جمعية ثورية عرفت باسم «جمعية الإتحاد والترقي»، وكان أحد أهدافها الرئيسية إعادة الحكم الدستوري في الدولة واعادة سيطرة الأتراك بقوة على مختلف أجزاء الولايات. وفعلا تحركت قطاعات عسكرية قوية يقودها ضباط ينتمون إلى تلك الجمعية، وسيطروا على الحكم منذ تلك السنة وعرفوا باسم (الاتحاديين). وعندما قرر الإتحاديون القيام بثورتهم هذه إتجهوا إلى إعطاء حركتهم شكلاً عاماً، بأن طلبوا من أهالي الولايات ـ ومنها (البوسنة) و(الهرسك) ـ إرسال مندوبين عنهم للاجتماع بأعضاء جمعية الاتحاد والترقي. ولكن حكومة الامبراطورية النمساوية كانت قد رأت في تلك الثورة ضد السلطان فرصة ثمينة لضرب عصفورين بحجر واحد.

1 ـ ضم الولايتين (البوسنة والهرسك) قبل أن يفيق الأتراك من مشاكلهم الثورية الداخلية.

2 ـ توجيه ضربة قاصمة للأماني القومية الصربية المتعلقة بهاتين الولايتين، إلا أن تغيير خريطة البلقان على هذا النحو ما كان ليتم إلا بعد أخذ موافقة مسبقة من روسيا.

وكان (اهرنتال) السياسي النمساوي الكبير يدرك تماماً هذه الحقيقة فوضع خطته على أساس استدراج روسيا إلى اعتراف بحق ضم الولايتين (البوسنة) و (الهرسك) ثم فرض الأمر الواقع عليها بحيث لا تستطيع روسيا الإفادة من هذا التغيير. ولهذا دخل في مفاوضات مع (إزفولسكي) ـ السياسي الروسي ـ بقصد تسوية مشكلة ضم (البوسنة والهرسك) إلى النمسا على أساس حصول روسيا على تعويض مناسب. وكان (اهرنتال) من الذكاء لأن يقدم لروسيا موافقة حكومته على مطالب روسية التقليدية الخاصة بحقها في مرور اسطولها الحربي عبر مضايق الدردنيل والبسفور، وكان يدرك أن أعداء روسيا وحلفاءها على السواء ـ وبوجه خاص ـ انجلترا لا يمكن أن تقبل تحقيق مثل هذه المطالب. ودبر (إهرنتال) ونفذ خطته بمهارة. فقد دارت هذه المفاوضات دون علم من جانب فرنسا، وفي نفس الوقت اتفق مع ملك بلغاريا ـ وكان لا يزال تحت السيادة الإسمية لسلطان العثماني ـ على أن يعلن استقلاله، ولم تلبث أن أعلنت امبراطورية النمسا والمجر فجأة ضم البوسنة والهرسك.

لم يعتبر هذا الضم ضربة موجهة ضد الدولة العثمانية بقدر ما اعتبر ضربة قاسية لمملكة الصرب الفتية في حركتها القومية، وضربة غادرة بروسيا إذ حصلت النمسا على هدفها بينما أصبح على روسيا المطالبة بتنفيذ فكرة التعويض. أبدت حكومة روسيا الكثير من الضجة الدبلوماسية وقليلاً من التهديد العسكري، ولجأت إلى حليفتها القديمة (فرنسا) وإلى صديقتها الجديدة (بريطانيا) ولكن فرنسا رفضت أن تقف إلى جانب روسيا وقفة الحليف لأن روسيا كانت تدبر مع النمسا من وراء ظهرها أموراً كان يجب أن يؤخذ رأيها فيها. أما وقد غدرت حكومة النمسا بروسيا فهذا أمر ـ من وجهة نظر الدبلوماسية الفرنسية ـ لا يلزم فرنسا بالوقوف إلى جانب حليفتها روسيا. أما بريطانيا فكان موقفها في هذه المسالة هو نفس موقفها التقليدي خلال القرن الماضي وهو الإبقاء على المضايق مغلقة في وجه الأسطول الحربي الروسي. بينما كان طبيعياً أن تضغط ألمانيا على روسيا كي تكف عن تصعيد الأزمة، وبذلك تكون روسيا قد واجهت هزيمة دبلوماسية في (1908) مشابهة لهزيمة ألمانيا في مؤتمر الجزيرة في (1906). حقيقة شربت روسيا هذا الكأس المرير ولكن أدى هذا إلى تأكيد حقيقة جوهرية، هي أن دول التحالف الثلاثي ـ وإن كسبوا هذه الجولة ـ أصبحوا يمثلون القوة الحقيقية المهددة لروسيا الأمر الذي زاد من ارتباط روسيا ـ رغم تقاعس فرنسا بالذات ـ بحليفتها (فرنسا).

كانت عملية ضم (البوسنة والهرسك) بالنسبة للصرب تعني أن هذين الإقليمين لن ينضما في المستقبل إلى (الصرب الكبرى). فاحتلال النمسا لهما لا يقضي على مثل هذا الأمل، أما ضمهما فبلا شك يقضي عليه. وكان تخاذل روسيا أمام الضغوط الكبيرة التي تعرضت لها من جانب الأصدقاء والأعداء على السواء ضربة ثانية للصرب التي كانت تعول كثيراً على تحرك روسي عنيف ضد النمسا. واستكانت الصرب قليلاً. ولكن كان من العسير جداً على حكومتها أن تتحكم في مشاعرالصربيين، سواء أكان هؤلاء في داخل الامبراطورية النمساوية أم في داخل الصرب نفسها. الأمر الذي سيكون له أكبر الأثر في تصعيد الأزمات بين الصرب وإمبراطورية النمسا والمجر.

ثانيًا: أزمة أغادير

وكما كان تغيير أوضاع البلقان على يد النمسا والمجر بضم البوسنة والهرسك ـ سبباً في إثارة مشكلة دولية معقدة، كان تغيير الوضع في المغرب (مراكش) على يد فرنسا سبباً في أن تثير ألمانيا (أزمة أغادير) التي رفعت حدة التوتر بين الكتلتين المتواجهتين إلى درجات خطيرة. فلقد كان التسابق البحري والاستعماري على أشده بين ألمانيا وبريطانيا، وفشلت المحاولات التي بذلتها انجلترا لوقف هذا التسابق وذلك لأن بريطانيا أصرت على أن تظل قوتها ضعف أية قوة بحرية تالية لها، ولأن ألمانيا أصرت على عدم التخلي عن الجزء الجنوبي لخط حديد بغداد لبريطانيا إلا إذا وافقت الأخيرة على الوقوف على الحياد من حرب تقع بين ألمانيا وفرنسا.

ولكن كان تحييد بريطانيا في 1908 وبعد ذلك يعني خروجها من الوفاق الودي مع كل من فرنسا وروسيا، ومن ثم كانت الأمور كلها تشير إلى صلابة بريطانية إزاء ألمانيا في كافة مجالات التفوق العالمي. كل هذا جعل حكومة ألمانيا تربص بدول الوفاق، وحانت الفرصة لإحراجها بغية هزه من جذوره عندما بعثت فرنسا بقواتها إلى داخل مراكش (المغرب) وكانت حكومة ألمانيا تدرك عن حق أن دخول جيش دولة أوروبية استعمارية بلاداً مثل المغرب يعني وقوع البلاد تحت الإحتلال. وهناك سابقة واضحة وجلية في مصر عندما دخلت جيوش بريطانيا مصر باسم حماية الخديوي توفيق من (المتمردين!). وكانت عمليات فرنسا في مراكش لا تضر كثيراً بالمصالح الألمانية، إلا أن الحكومة الألمانية كانت تذكر الهزيمة الدبلوماسية المريرة التي منيت بها في مؤتمر الجزيرة عام 1906، وتصورت أنها لو تدخلت بعنف ضد إجراءات فرنسا في (مراكش) لربما أحرزت كسباً سياسياً يمحو آثار تلك الهزيمة. خصوصاً وأن اسبانيا رغم تواطئها مع فرنسا على استعباد مراكش ـ كانت تعارض تلك العمليات العسكرية الفرنسية في داخل تلك البلاد. إلا أن الإجراء الألماني كان عنيفاً إذ أرسلت الحكومة الألمانية المدمرة (البانثر) إلى ميناء أغادير مسيطرة عليه بمدفعيتها لحين التوصل إلى تسوية تعطي تعويضاً مناسباً لألمانيا ، وطالبت ألمانيا فعلاً بكل الكونغو الفرنسي.

قوبل هذا التهديد الألماني بوقفة صلبة قوية من جانب بريطانيا ضد مطالب ألمانيا وإجراءاتها تلك. وبدا واضحاً أن الحرب لو وقعت ستخوضها بريطانيا إلى جانب فرنسا. وتبادل المختصون العسكريون الفرنسيون والإنجليز الخطط العسكرية لمواجهة الأزمة. وبينما كان الشعب الألماني يتصاعد ثورة ضد بريطانيا ويدعو القيصر إلى التصلب، إلا أن القيصر كان يرى أن المسالة تساوي خوض الحرب الكبرى، وآثر التراجع بقبوله قطعة أرض فقط من الكونغو الفرنسي على أمل أن تفتح له هذه الأرض مجالات واسعة استعمارية في افريقية. وبذلك تكون فرنسا قد خرجت ظافرة مطلقة اليد في المغرب وأعلنت حمايتها عليه في 1912. وأدت تلك الأزمة إلى نتيجة هامة، وهي أن بريطانيا في علاقتها مع فرنسا تعدت مجال (الوفاق) إلى مجال (التحالف) دون النص على ذلك في معاهدة أو إتفاقية. وخلال هذه الأزمة وفي أعقابها حاولت كل من إيطاليا وروسيا انتهازها لتحقيق توسعات جديدة. فروسيا حاولت مد سيطرتها إلى طهران ولكن المعارضة البريطانية منعتها من تحقيق هدفها. أما إيطاليا فقد أقحمت حرباً على الدولة العثمانية ـ بعد أن حصلت على اعتراف الدول الكبرى بأن – تستولي ايطاليا على طرابلس – وأنزلت

جيوشها على الشواطيء الليبية واستولت عليها وعلى جزر الدوديكانيز واضطرت تركيا إلى وقف الحرب معها بسبب تكوين عصبة البلقان (اليونان والصرب وبلغاريا) لشن حرب على الدولة العثمانية تحت ستار اخراجها من أوروبا وفي الحقيقة لتحقيق توسعات اقليمية وقومية.

ثالثًا:الحروب البلقانية 1911 - 1913

يوصف البلقان عادة، قبل الحرب العالمية الأولى - بأنه برميل البارود ولقد كان كذلك فعلاً، وكانت مواقف الدول الكبرى إزاء مشكلاته، وسياسات دول البلقان نفسها من التضارب لدرجة كان من العسير تحديد من هو صديق الدول البلقانية ومن هو العدو لهذه الدول الكبرى أو تلك، ولكن كانت الصرب بلا جدال العدو الخطير لإمبراطورية النمسا والمجر في أعقاب أزمة ضم البوسنة والهرسك.

وكانت امبراطورية النمسا والمجر تبحث عن وسيلة تسكت بها إلى الأبد الدعايات النشطة للصرب الكبرى، حتى لقد جربت الحصار الاقتصادي ولكن دون جدوى. ومن ثم أخذ ساسة النمسا يعتقدون يوما بعد يوم أن القوة هي الوسيلة الوحيدة لقتل فكرة (الصرب الكبرى) وإلا تعرضت الإمبراطورية النمساوية للتفكك. ومع هذا سارت الأمور بشكل يتعارض مع أمن وسلامة هذه الأمبراطورية، خصوصاً من حيث نمو المشاعر القومية في البلقان في أعقاب الثورة التي نشبت في مقدونيا ضد الحكم التركي فيها. فمقدونيا كانت تضم يونان وبلغار وصرب، والتهبت الصحافة بكتابات القوميين في اليونان وبلغاريا وصربيا وأصبحت الفكرة القومية مجالاً للمزايدات الديماجوجية تحثها روح صليبية واضحة.

وإذا ما وضعنا جانباً هذه النعرات القومية الحادة وبحثنا عن امكانية تقسيم مقدونيا بينها لوجدنا أن القوميات في مقدونية كانت متداخلة جداً فيما بينها بحيث تستحيل عملية تقسيم له على أساس قومي الأمر الذي وضع بذور الفوضى في العلاقات بين دول عصبة البلقان التي تشكلت في 1912 من تحالف صربي بلغاري ثم من تحالف يوناني بلغاري. ومع أن روسيا كانت تشجع تكوين مثل هذه العصبة إلا أنها اكتشفت أن مجرد ظهورها سيؤدي إلى اشتطاطها في التحرك ضد الدولة العثمانية بشكل يهدد أطماعها نفسها في هذه الدولة العثمانية. وحاولت روسيا وكذلك فرنسا أن تحدا من نشاط هذه العصبة ولكن دون جدوى إذ كانت دول العصبة تدرك أن روسيا لا بد وأن تقف بجانبها. هذا فضلاً عن أن هذه المحاولة الروسية لفرض التعقل على عصبة البلقان جاءت في وقت متأخر، إذ لم يلبث أن أعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية وتبعته دول العصبة. كانت العمليات العسكرية التي قامت بها جيوش العصبة ناجحة، ولكنها تمت بشكل أدى إلى قلب الأوضاع السياسية والإستراتيجية بل والدولية بشدة. فقد انتصرت الجيوش الصربية على الأتراك واستولت على موناستير وقلب مقدونيا، بينما كانت بلغاريا تعلق الآمال الكبار على أن تكون هذه من نصيبها هي. ووصلت القوات الصربية في زحفها حتى (دورازو) ، فاستشاطت امبراطورية النمسا والمجر غضباً من حصول الصرب على منفذ على بحر ايجه؛ وتحت الضغوط النمساوية والايطالية أرغمت الصرب على الانسحاب من دورازو.

كذلك ضغطت النمسا على (الجبل الأسود) حتى تخلى عن اشقودره. وانتصرت القوات اليونانية كذلك واستولت على (سالونيك)، إلا أن هذه كانت أيضاً محط آمال بلغاريا. وسقطعت (ادرنه) بجهد مشترك صربي بلغاري ولكن استمرت القوات البلغارية في زحفها حتى مسافة

قليلة من الأستانة، فتحركت روسيا، التي لا تقبل أن تكون المضايق بيد دولة أوروبية أخرى صغيرة كانت أم كبيرة صديقة كانت أم عدوة، وضغطت على بلغاريا حتى استبعدت هذه فكرة استمرار الزحف صوب العاصمة العثمانية. هذه الانتصارات، وتلك التدخلات الفورية من جانب الدولتين الكبيرتين المعنيتين بالبلقان، ورغبة الدول الكبرى في إحلال السلام قبل ان تختلط الأوراق بعضها ببعض، أدى إلى عقد صلح بين الدولة العثمانية ودول البلقان الأربع. ولا تكاد تمر إلا فترة وجيزة للغاية حتى شرعت دول العصبة في إعادة النظر فيما حصلت عليه. وكانت بلغاريا شديدة النقمة على ما انتهت إليه الأمور فقد كسبت كل من اليونان والصرب مساحات واسعة تضم أعداداً كبيرة من النفوس، وهذه الرعية الجديدة ليست يونانية ولا صربية فقط بل بلغارية كذلك.

وكان استخلاص هؤلاء البلغار لا يمكن أن يتم إلا بقوة السلاح، ولهذا اعتمد ملك بلغاريا على مفاجأة الصرب بهجوم كاسح ليستولي على «قلب مقدونيا» ولكن الصرب كانت على تفاهم تام مع اليونان ضد بلغاريا. فدخلت اليونان - إلى جنب العرب - الحرب ضد بلغاريا، وهزمت الجيوش البلغارية ولكن الأدهى من ذلك انتهاز رومانيا الفرصة ودخولها الحرب ضد بلغاريا وزحفت جيوشها حتى هددت صوفيا نفسها، واستطاع كذلك (أنور باشا) - الذي تسلم زمام الأمور في الأستانة على اثر انقلاب عسكري جديد – من استخلاص (أدرنه) بسهولة. واسقط في يد البلغار واضطروا إلى عقد معاهدة بوخارست 1913/8/10 ربحت رومانيا في هذه المعاهدة إقليم (سلستريا) إلى جانب الجزء الجنوبي من (دبروجه) مع أن غالبية سكانه من البلغار. وحصلت اليونان على جنوب مقدونيا وأغلقت بذلك المنافذ البحرية في وجه بلغاريا، هذا بالإضافة إلى كريت التي أعلنت الثورة على الدولة العثمانية وانضمت إلى اليونان. وظهرت دولة مستقلة جديدة هي البانيا لا حباً في استقلالها ولكن منعا للصرب من الوصول إلى البحر الأدرياتي وهو أمر كانت تقاومه بشدة كل من امبراطورية النمسا والمجر وإيطاليا. والجدير بالذكر أنه خلال هذه الأزمات البلقانية كان ينعقد في لندن مؤتمر (1912 - 1913) يسعى إلى إيجاد تسوية معقولة، فكان آخر مؤتمر دولي ينظر في قضية السلام في أوروبا وكان أكثر المؤتمرات الأوروبية فشلا، ومن ثم كان تأكيداً على أن الجيوش هي القادرة على تسوية المشاكل.

أدت هذه الحرب البلقانية إلى نتائج وتطورات ستقود إلى الحرب العالمية الأولى، وأهمها: 1 - خرجت بلغاريا مهيضة الجناح دون أن تحرك روسيا لإنقاذها، بل إن النمسا هي التي وقفت - إلى حد ما - إلى جانبها، ولهذا أصبحت العلاقات البلغارية الروسية غير ودية.

2 - كانت حكومة الإتحاديين في الأستانة تميل إلى ألمانيا ، وبعد الحرب البلقانية أصبحت أكثر ميلاً إليها وأكثر استعداداً لإعادة تنظيم القوات المسلحة البرية التركية بواسطة خبراء ألمان عسكريين. بل طلب الإتحاديون من ألمانيا إرسال قائد كبير يتولى قيادة الجيش التركي في الآستانة. فأثار ذلك مخاوف من جانب روسيا أن تتحكم ألمانيا بالتدريج على المضايق وطالبت بسحب ليمان فون ساندرس المكلف بتلك المهمة إلا أن بريطانيا لم تؤيد روسيا في طلبها هذا حيث كان في الأستانة قائد بريطاني يتولى إعادة تنظيم البحرية العثمانية وانتهت المفاوضات الخاصة بهذه المشكلة إلى تسوية في كانون أول – ديسمبر 1913، تولى بمقتضاها «ليمان فون ساندرس» رئاسة هيئة أركان الجيش التركي في الأستانة، متخليا بذلك عن القيادة التي كانت في حقيقة الأمر عبئاً يصعب عليه القيام به ومع هذا فكانت ألمانيا تدرك أن الدولة العثمانية - مجال

ألمانيا الحيوي معرضة للانهيار من الداخل وليس من الخارج فقط. فقد كانت الحركة التحررية تشتد في كل من الشام والعراق، ومع أن مؤتمر باريس الذي عقده زعماء العرب في 1913 أدى إلى تفاهم عربي تركي إلا أن التطورات أثبتت أن سياسة الأتراك نحو العرب لم تتغير، وظلت المشكلات على ما هي : لم تشتد في تعقيداتها.

3 ـ أدت هزيمة الدولة العثمانية أمام الدول البلقانية وتصاعد المشكلات القومية في هذه الدولة عليه العثمانية إلى زيادة في تشتيت القوات العسكرية لامبراطورية النمسا والمجر حيث أصبح عليها أن تحتفظ بجيش كبير يراقب مواقف الدول البلقانية السريعة التقلب الأمر الذي يحول دون أن تلقي هذه الامبراطورية بكل جيوشها ضد روسيا في حالة وقوع حرب معها. هذا بينما زتد التقارب بين دول الوفاق الثلاثي: روسيا وبريطانيا وفرنسا، وكان هذا التقارب يزداد قوة كلما اشتدت حمى التسابق البحري بين بريطانيا وألمانيا .

ودارت مفاوضات حربية بحرية بين روسيا وبريطانيا، وبين بريطانيا وفرنسا وكان أهم ما توصلت إليه بريطانيا هو اتفاقها مع فرنسا على أن تتولى البحرية الفرنسية السيطرة على مياه البحر المتوسط وتتولى البحرية البريطانية بعد سحب قطعها من البحر المتوسط ـ السيطرة على بحر الشمال والدفاع عن سواحل فرنسا الشمالية. وكانت الصحافة من المظاهر التي كانت تزيد من هذا التقارب بين دول الوفاق والتي تعمق العداء بينها وبين دول الحلف الثلاثي. فقد كانت المقالات الصحفية النارية في الصحف الألمانية ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا تقابلها مقالات لا تقل عنها عنفاً في صحف هذه الدول، الأمر الذي عمق الكراهية بين الشعوب فضلاً عما كان بين الحكومات من بغضاء. خلال السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت أعصاب الساسة والشعوب المثقفة مشدودة بسبب الأزمات التي عرضت السلام للإنهيار.

وفي كل مرة بعد انتهاء كل أزمة كانت النفوس تزداد قلقاً بسبب تصاعد الحرب الصحفية والمنافسات السياسية والاقتصادية بين الكتلتين الكبيرتين: دول الوفاق (روسيا وفرنسا وبريطانيا) من جهة وبين ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر من جهة أخرى، وأما ايطاليا فلم يكن لها الدور الكبير في هذه المنافسات بسبب ارتباطاتها المتوازية مع كل من الكتلتين، ولهذا أصبحت الكتلة الثانية قاصرة تقريباً ـ في واقع الأمر ـ على ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر وكان السؤال المحير الوارد على لسان الساسة والمسؤولين والصحفيين هو أي من الكتلتين أقوى. وكان هناك اعتقاد عام أن الحرب هي الوسيلة الوحيدة لكشف هذه الحقيقة الخطيرة، وأصبحت مهام أركان حرب هذه الدول هي الإعداد لحرب مقبلة قريبة ومن ثم لم تعد أوروبا قادرة على أن توحد كلمتها إزاء مشكلة من المشكلات الحادة الدولية على ذلك النحو الذي حدث عند عقد مؤتمر برلين 1878 والخاص بالمشكلة الشرقية، ومؤتمر برلين لسنتي 1884 – 1885 بشأن مشكلة استعمار افريقية.

ويعتبر مؤتمر الجزيرة 1906 واحداً من المؤتمرات التي كان لأوروبا فيه كلمة متفق عليها بغض النظر عن خطورة النتائج التي أدى إليه هذا المؤتمر، وأخيراً عقد مؤتمر لندن في 1912 للبحث عن حل للمشكلة البلقانية، ولكن لم يستطع هذا المؤتمر الوصول إلى قرار ما وهكذا كانت قدرة أوروبا على مواجهة الأحداث الكبرى عن طريق المؤتمرات الدولية تتناقص بسرعة حتى تلاشت وأصبح السلاح هو الوسيلة الباقية لحسم المشكلات. هذه المشاعر الحادة كانت

المسؤول الأول عن فشل الدعوات التي وجهت إلى ساسة العالم للوصول إلى سلم دائم عن طريق مؤتمر سلام دولي.

فلقد دعا قيصر روسيا إلى مؤتمر سلام في 1899 وكان الدافع الحقيقي لدعوته هو إعطاء فرصة لروسيا الضعيفة لتقوي نفسها في الوقت الذي يجمد فيه القوات المسلحة في الدول الكبرى الأخرى، وفشلت فكرة عقد هذا المؤتمر لأن الدول الأوروبية كانت سيئة الظن بشدة في نيات روسيا من وراء هذه الدعوة. وجاءت الدعوة الثانية في 1907 على لسان تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن قضت عليها بريطانيا لأنها كانت تمتلك قوة بحرية كافية لضمان أمنها وسلامة خطوط مواصلاتها مع امبراطوريتها ومختلف أجزاء العالم. ولم تستمتع الحكومة البريطانية إلى الانتقادات الشديدة التي وجهتها كل من حكومتي واشنجتن وبرلين بسبب هذا التصلب. إذ كان مركز بريطانيا قوي إلى حد كبير في 1907 عنه في السنوات القليلة السابقة. وتصاعدت سياسة التسليح في دول الوفاق الثلاثي وفي امبراطوريتي ألمانيا والنمسا والمجر بشكل يفوق نمو تسليحها فيما سبق، حتى غدا شبح الحرب ماثلاً أمام الأعين حيث كانت الحكومات الديمقراطية حين تسعى إلى كسب موافقة برلماناتها على اعتمادات التسلح تضخم من خطر وقوع حرب كبرى قريبة، وكانت مراسم القياصرة في ألمانيا والنمسا وروسيا تؤكد على الحاجة الملحة لمواجهة ظروف استثنائية دولية. هذا فضلاً عن الخطب النارية للسياسيين والمقالات الصحفية المهيجة للمشاعر القومية، والملاحظ أنه خلال 1913 أصدرت الدول الكبرى المتنافسة قرارات ومراسيم بقصد زيادة القوات المسلحة زيادة كبيرة، فبالنسبة لألمانيا صدر القانون في 14 يناير – كانون ثاني 1913. وبالنسبة لامبراطورية النمسا والمجر في أواخر 1913 صدر القانون الفرنسي في 7 أغسطس – آب 1913 وصدر مشروع إعادة تنظيم الجيش الروسي في أواخر 1913، وظهرت الدعوة إلى التجنيد الإجباري في بريطانيا في 1911 - 1912 ولكن الحكومة البريطانية ركزت على زيادة قوتها البحرية المسلحة زيادة كبيرة.

رابعًا: مصرع ولي عهد النمسا

وأخطر نتائج الحرب البلقانية هو نمو صربيا أرضاً وسكانا واشتداد الحركة القومية الصربية والتهابها سواء داخل الصرب أو بين الأقلية الصربية الكبيرة الواقعة تحت حكم امبراطورية النمسا والمجر. وكان الطلبة هنا وهناك يشنون حملة دعاية عنيفة من أجل توحيد الصربيين كلهم تحت حكومة وطنية واحدة وكان ان تشكلت في داخل امبراطورية النمسا والمجر عدة جمعيات سرية ارهابية تولت القيام بعدة عمليات اغتيال لحكام البوسنة ولغيرهم من المسؤولين عن اخضاع الصرب تحت هذه الامبراطورية، وكان اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند ولي عهد النمسا وزوجته في سيراييفو في 28 يونيو – حزيران 1914 وكان ولي العهد من أكثر سياسيي النمسا تشدداً ازاء المشكلة الصربية ويرى أنه لا يمكن تسويتها إلا بالقوى المسلحة. وكانت هذه الحادثة هي التي بدأت التطورات التي أدت في النهاية إلى وقوع الحرب الالمية الأولى.

خامسًا: الدول المشاركة في الحرب العالمية الاولى

كانت حادثة اغتيال ولي عهد النمسا أقصى ما يمكن أن تتحمله النمسا وأصبح من الضروري أن تلقى الصرب جزاء دعاياتها العدوانية ضد جارتها الكبيرة، وإلا إذا مرت

الحادثة بحصول النمسا على اعتذار دبلوماسي أو حل سياسي فقط فإن ذلك سيعتبر إذلالاً كبيراً جديداً لكرامة الامبراطور وشعبه. ولقد كانت فكرة الوصول إلى تسوية دبلوماسية واردة عند مختلف الأوساط الأوروبية السياسية، وكذلك كانت لديهم فكرة حصر الأزمة الجديدة بين النمسا والصرب فقط ومنع تصاعدها أو دخول أطراف جدد فيها. إلا أن ظروف النمسا كانت لا تسمح بمثل هذه الخطوات أو التسويات، فالتسوية السلمية أصبحت بالنسبة لها مجرد تسكين لأزمة مستعصية لا بد وأن تنفجر يوما ما، وبعد وقت قصير وليس بعد وقت طويل، طالما المسبب لها كان لا يزال يتمتع بكامل قواه، ونعني بذلك دولة الصرب. فهل كان من الممكن حصر الأزمة بين هذين الطرفين: النمسا والصرب ومنع انحدارالعالم إلى حرب كبرى كانت ماثلة فعلاً أمام الأعين؟. كانت النمسا قد عقدت العزم على أن توجه إلى الصرب الضربة التي كان يتوق فرانز فرديناند - في حياته - أن يوجهها إليها. وكانت الصرب تدرك ذلك، والتزمت جانب الحذر الشديد ونفت عن نفسها مسؤولية مصرع فرانز فرديناند وزوجته، وفضلاً عن هذا أثبتت التحقيقات النمساوية نفسها براءة الصرب من هذه الجريمة، ولكن لم يلق ذلك كله صدى في الدوائر النمساوية، واستمرت في خطواتها العنيفة ضد الصرب وكان يتولى هذه العمليات السياسي العنيد برشتولد وزير خارجية النمسا، تؤيده فيها حكومة ألمانيا . وكانت أولى هذه الخطوات الإنذار الذي بعثت به حكومة المملكة الثنائية إلى الصرب في 23 يوليو - تموز 1914.

وكانت مواد هذا الإنذار تعي ببساطة تدخل حكومة النمسا في أدق الشؤون الداخلية الصربية مثل حل الجمعيات الوطنية، ومنع أية دعاية مكتوبة أو مذاعة سواء في الصحافة أو المدارس وإبعاد الموظفين الذين أعلنوا كراهيتهم للمملكة الثنائية (النمسا والمجر)، إلى غير هذا من الأمور التي تكاد تفقد الصرب إستقلالها. ومع أن الحكومة الصربية وافقت على عدد كبير من مواد الإنذار النمساوي إلا أن حكومة فيينا أعلنت الحرب عليها في 28 يوليو 1914. كان هذا في نظر الصرب عملية سحق لها، وتطلعت بسرعة إلى منقذ لها، وكانت روسيا مستعدة للقيام بهذا الدور لأنها كانت لا تقبل بأي حال من الأحوال سحق الصرب على يد النمسا لما سيترتب عن ذلك من تسلط نمساوي على البلقان. أما وقد أصبحت المملكة الثنائية معرضة لحرب ضد الصرب وروسيا، وبالتالي ضد فرنسا حليفة روسيا فإن ألمانيا ما كانت لتقبل إنهيار حليفتها (المملكة الثنائية) أمام أعدائها. ومع هذا كانت هناك مجهودات ذات قيمة بذلتها حكومة فرنسا لكبح جماح روسيا، وبذلتها ألمانيا لتهدىء من روع المملكة الثنائية. كذلك رفضت حكومة بريطانيا أن تعلن التزامها بالوقوف عسكرياً إلى جانب فرنسا إذ ما تطورت الأحداث إلى حرب بين الكتلتين. ولكن روسيا رفضت نصيحة فرنسا بأن يقتصر توجيه تعبئتها العامة ضد المملكة الثنائية، بل إن روسيا وجهتها أيضاً ضد ألمانيا، وفرضت بذلك الأمر الواقع على فرنسا: - فإما أن تقف إلى جانب حليفتها - وإما أن تترك روسيا في الميدان وحدها الأمر الذي يعرض روسيا لهزيمة ساحقة تكون نتائجها على فرنسا في منتهى الخطورة.

وكان أن توالت الأحداث بسرعة وأخذت الدول الأربع الكبرى المتعادية: روسيا وفرنسا والمملكة الثنائية وألمانيا تتبادل التهم والتعبئة العامة حتى أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في اول أغسطس - آب 1914 وعلى فرنسا في 3 أغسطس ولم يبق من الكتلتين خارجاً عن الحرب الكبرى سوى بريطانيا وإيطاليا ولكن بريطانيا كانت في نفس الوقت تتخذ خطوات خطيرة معادية

لألمانيا ومساندة لفرنسا. فقد حشدت أسطولها في بحر الشمال ووعدت فرنسا بأن هذا الأسطول سيمنع أي هجوم ألماني على السواحل الفرنسية. ويركز المؤرخون الإنجليز على أن الحكومة البريطانية ـ وكانت برئاسة جرأي – ما كانت لتدخل الحرب إذا ما وقفت الأمور ـ بالنسبة لبريطانيا ـ عند هذا الحد، وأن ألمانيا هي التي أعطت الذريعة لها بدخول الحرب حين اعتدت على حيادة البلجيك ـ عندما زحفت الجيوش الألمانية لغزو فرنسا ـ على اعتبار أن هذا العدوان هو الذي حرك الرأي العام البريطاني نحو إعلان الحرب على ألمانيا .

وتقول وجهة النظر البريطانية في أسباب دخول إنجلترا الحرب أن مصالح بريطانيا: «مرتبطة بمصالح روسيا وفرنسا في هذا النزاع الذي يقوم من أجل الإستيلاء على الصرب، ولكنه نزاع بين ألمانيا التي تريد فرض دكتاتورية سياسية ـ في أوروبا وبين الدول التي تريد استعادة الحرية الفردية».

وفي اعتقادنا أن بريطانيا كان لديها فعلا الذريعة التي يمكن أن تتذرع بها لتجنب المشاركة في الحرب عند نشوبها، فتصبح قادرة على الرؤية الصحيحة وتحديد خططها بشكل أدق ؛ يخدم – مصالحها الخاصة أولاً. فالوفاق الودي لا يلزم بريطانيا بالدخول في الحرب إلى جانب فرنسا. والأمور التي جلت بريطانيا تدخل الحرب عقب اجتياح الجيوش الألمانية الحدود البلجيكية:

1 ـ إن الدفاع الفرنسي لا بد وأن ينهار إذا ما تركت فرنسا وحدها في هذه الظروف الجديدة.

2 ـ إن دولاً أخرى قد تتشجع وتدخل الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا الأمر الذي يعرض الإمبراطورية البريطانية لخطر شديد.

أما مسالة حرية البلجيك وحياده، والدفاع عن حرية الفرد ضد الدكتاتورية وإيطاليا ولكن بريطانيا كانت في نفس الوقت تتخذ خطوات خطيرة معادية لألمانيا ومساندة لفرنسا، فقد حشدت أسطولها في بحر الشمال ووعدت فرنسا بأن هذا الأسطول سيمنع أي هجوم ألماني على السواحل الفرنسية. ويركز المؤرخون الإنجليز على أن الحكومة البريطانية ـ وكانت برئاسة جرأي ـ ما كانت لتدخل الحرب إذا ما وقفت الأمور ـ بالنسبة لبريطانيا ـ عند هذا الحد، وأن ألمانيا هي التي أعطت الذريعة لها بدخول الحرب حين اعتدت على حيادة البلجيك ـ عندما زحفت الجيوش الألمانية لغزو فرنسا ـ على اعتبار أن هذا العدوان هو الذي حرك الرأي العام البريطاني نحو إعلان الحرب على ألمانيا .

وتقول وجهة النظر البريطانية في أسباب دخول إنجلترا الحرب أن مصالح بريطانيا: «مرتبطة بمصالح روسيا وفرنسا في هذا النزاع الذي يقوم من أجل الإستيلاء على الصرب، ولكنه نزاع بين ألمانيا التي تريد فرض دكتاتورية سياسية ـ في أوروبا وبين الدول التي تريد استعادة الحرية الفردية».

وفي اعتقادنا أن بريطانيا كان لديها فعلا الذريعة التي يمكن أن تتذرع بها لتجنب المشاركة في الحرب عند نشوبها، فتصبح قادرة على الرؤية الصحيحة وتحديد خططها بشكل أدق ؛ يخدم ـ مصالحها الخاصة أولاً. فالوفاق الودي لا يلزم بريطانيا بالدخول في الحرب إلى

جانب فرنسا. والأمور التي جلت بريطانيا تدخل الحرب عقب اجتياح الجيوش الألمانية الحدود البلجيكية:

1-- إن الدفاع الفرنسي لا بد وأن ينهار إذا ما تركت فرنسا وحدها في هذه الظروف الجديدة.

2- إن دولاً أخرى قد تتشجع وتدخل الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا الأمر الذي يعرض الإمبراطورية البريطانية لخطر شديد.

أما مسالة حرية البلجيك وحياده، والدفاع عن حرية الفرد ضد الدكتاتورية وهي: بوليفيا. بيرو- أورجواي، أكوادور. وبالنسبة للدول الآسيوية الأفريقية، شاركت - بطبيعة الحال - مختلف أجزاء الإمبراطورية البريطانية والفرنسية في الحرب، وأعلنت سيام (تايلاند) الحرب على دولتي الوسط في يوليو - تموز 1917، كما أعلنتها ليبيريا والصين في أغسطس - آب (1917).

اشكال وصور

صورة للحرب العالمية الأولى

الحرب العالمية الأولى في ألمانيا

صورة عالمية للحرب وأوضاعها

الخرائط

الإمبراطوريات السابقة المنهزمة:
فرنسا
إسبانيا
إيطاليا
ألمانيا
النمسا
روسيا
تركيا
إيران

أ
بريطانيا
روسيا
ألمانيا
المحيط الأطلسي
فرنسا
النمسا
صربيا
إسبانيا
الدولة العثمانية
البحر المتوسط

الحرب العالمية الأولى

الخريطة الجغرافيا سياسية الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى
النرويج
السويد
الدانمارك
المملكة المتحدة
ايرلندا
هولندا
ألمانيا
بلجيكا
بولونيا
الاتحاد السوفياتي
فرنسا
سويسرا
النمسا المجر
رومانيا
بلغاريا
يوغسلافيا
البحر الأسود
إيران
إسبانيا
البرتغال
إيطاليا
تركيا
اليونان
سوريا
العراق
لبنان
البحر المتوسط
فلسطين
الأردن
المغرب الأقصى
الجزائر
تونس
ليبيا
مصر

قائمة المراجع

1- جلال يحيي: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.

- حسن جلال: الثورة الفرنسية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 0937

- عبد الحميد البطريق ، وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر ، دار الفكر العربي، القاهرة، 0997)

- عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم في الحديث من ظهور البرجوازية حتى الحرب الباردة الهيئة العامة للكتاب، 1997 ،القاهرة.

- عمر عبد العزيز، التاريخ الأوروبي والأمريكيالحديث ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،2000)

- عمر عبد العزيز، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر 1815 -1919، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992.

- محمد فؤاد شكري ومحمد أنيس، أوربا في العصور الحديثة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة، 1961.

- محمد فؤاد شكري، الصراع بين البرجوازية والإقطاع 1786 -1848 دار الفكر العربي، 1958.

- هربرت فشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة إلى الثورة الفرنسية، ترجمة وديع الضبع دار المعارف، القاهرة، ط3 ،2.

-عبد اللطيف الصباغ: تاريخ أوروبا الحديث، مذكرة دراسية.

- سيد عبد العال: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، مذكرة دراسية.

-عبد العزيز سليمان نوار، عبدالمجيد نعنعي: التاريخ المعاصر أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 2014.

- عبدالعزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999.